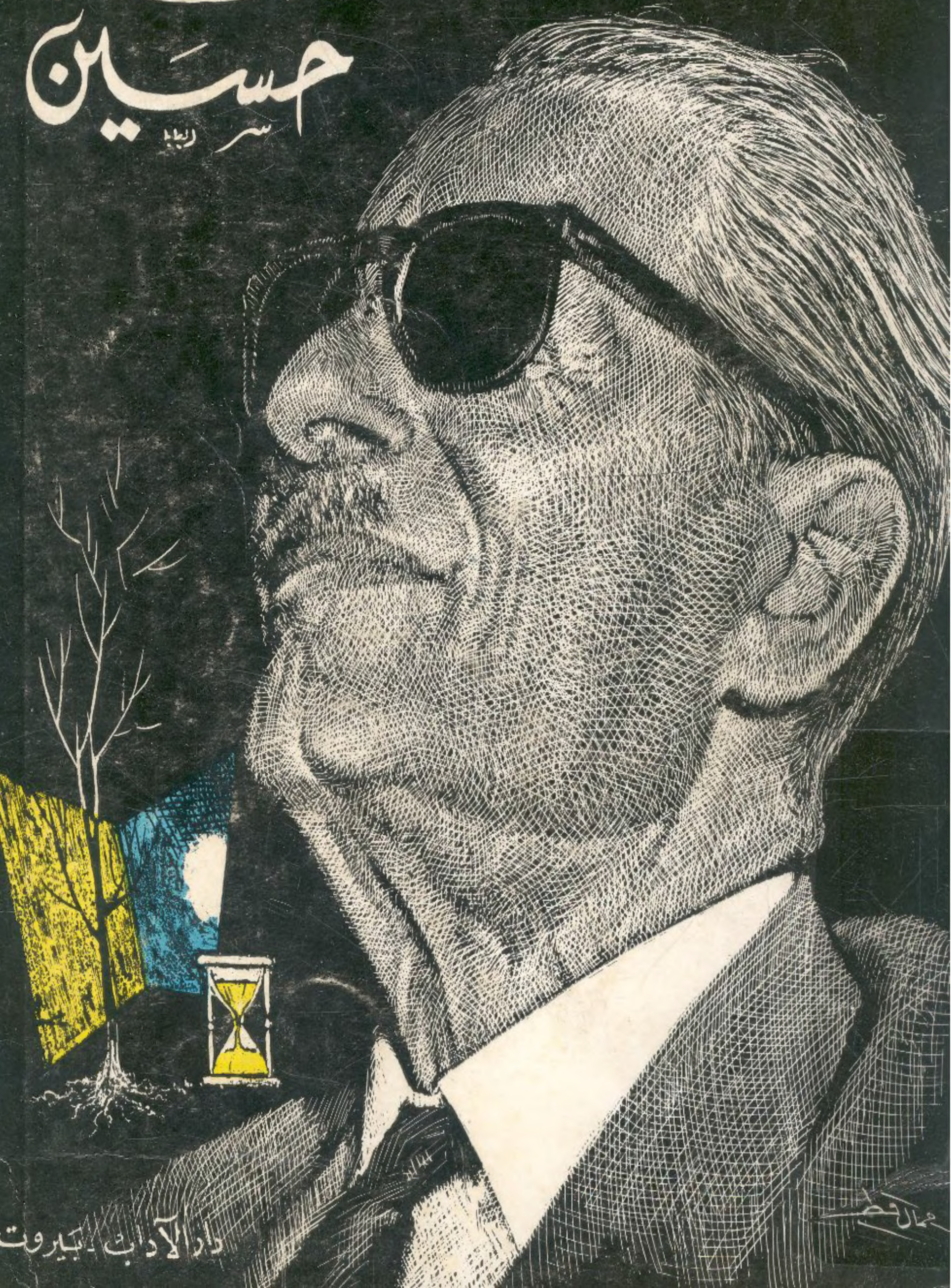
مذكرات طه حسين



مُذكّراتُ طَهَ حُسَيْن

دار الآداب - بيروت

الفصل الأول

على باب الأزهر

كان صاحبنا الفتى قد أنفق اربعة أعوام في الازهر ، وكان يعدّها أربعين عاماً ، لانهـا قد طالت عليه من جميع أقطاره كأنها الليل المظلم ، قد تراكمت فيه السحب القاتمة الثقـال ، فلم تدع للنور اليه منفذا . ولم يكن الفتى يضيق بالفقر ، ولا بقصر يده عما كان يريد ، فقد كان ذلك شيئاً مألوفاً بالقياس الى طلاب العلم في الازهر الشريف .

وكان الفتى يرى من حوله عشرات ومئات يَشقَون كما يشقى ، ويلقون مثل ما يلقى ، وتقصر أيديهم عن أقصر ما كانوا يحبون ، قد اطمأنوا الى ذلك وألفته نفوسهم واستيقنوا أن الثراء والسعة وخفض العيش أشياء تعوق عن طلب العلم ، وأن الفقر شرط للجدّ والكدّ والاجتهاد والتحصيل ، وأن غنى القلوب والنفوس بالعلم خير وأجدى من امتلاء الجيوب والأيدي بالمال .

وانما كان يضيق أشد الضيق بهذا السأم الذي ملأ عليه حياته كلها وأخذ عليه نفسه من جميع جوانبها .

حياة مطردة متشابهة لا يجدّ فيها جديدٌ منذ يبدأ العام الدراسي الى أن ينقضي :

درس التوحيد بعد أن تُصلّى الفجر ، ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس ، ودرس في النحو بعد أن يرتفع الضحى ، وبعد أن يصيب الفتى شيئاً من طعام غليظ ، ودرس في النحو أيضاً بعد أن تُصلّى الظهر ، ثم فراغ فارغ كثيف بعد ذلك يصيب فيه الفتى شيئاً من طعام غليظ مرة أخرى ، حتى اذا صُلّيت المغرب راح الى درس المنطق يسمعه من هذا الشيخ أو ذاك ، وهو في كل هذه الدروس يسمع كلاماً معاداً وأحاديث لا تمس قلبه ولا ذوقه ، ولا تغذو عقله ، ولا تضيف الى علمه علماً جديدا . فقد تربّتْ في نفسه تلك الملكة كما كان الازهريون يقولون ، وأصبح قادراً على أن يفهم ما يكرره الشيوخ من غير طائل .

وكان الفتى يفكر في أن أمامه ثمانية اعوام أخرى سيعدّها ثمانين عاماً كما عدّ الأعوام الاربعة التي سبقتها . وفي أن عليه أن يختلف الى هذه الدروس كما تعوّد أن يفعل وأن يعيد ويبديء في هذا الكلام ، الذي لا يسيغه ولا يجد فيه غناء .

وفي أثناء هذا كله ذكر اسم الجامعة ، فوقع من نفسه أول الأمر موقع الغرابة الغريبة ، لانه لم يسمع هذه الكلمة من قبل ، ولم يعرف الا الجامع الذي كان ينفق فيه بياض النهار وشطراً من سواد الليل . فما عسى أن تكون الجامعة ، وما عسى أن يكون

الفرق بينها وبين جامعه ذاك أو جوامعه تلك الكثيرة التي كان يختلف فيها الى شيوخه. فما اكثر ما كان بعض الشيوخ ينأون بدروسهم وطلابهم عن الازهر ويؤثرون أنفسهم بمسجد من هذه المساجد الكثيرة في الحي. وكان تنقّل الفتى بين هـــذه المساجد يرفّه عليه بعض الترفيه.

على أنه لم يلبث أن فهم كلمة الجامعـــة هذه فهماً مقارباً، وعرف أنها مدرسة لا كالمدارس، وأحسّ أن مزيتها الكبرى عنده أن الدروس التي ستلقى فيها لن تشبه دروس الازهـــر من قريب أو بعيد، وأن الطلاب الذين سيختلفون اليهـــا لن يكونوا من المعمّمين وحدهم، بل سيكون فيهم المطربشون، وعسى أن يكونوا أكثر عدداً من اصحاب العمائم، لان هؤلاء لن يعدلوا بعلمهم الازهري علماً آخر، ولن يشغلوا أنفسهم بهذه القشور التي يضيع فيها أبناء المدارس، كما كانوا يسمونهم في تلك الايام، أوقاتهم.

وكان نبأ الجـــامعة هذا ايذاناً للفتى بأن غمّته تلك توشك أن تُكشف، وبأن غمرته تلك توشك أن تنجلي. فقد يتاح له أن يسمع غير ما تعوّد أن يبديء فيه ويعيد من علمه ذاك المملّ. وقد أقام الفتى مع ذلك على شكّ ممضّ يؤذي نفسه أشد الايذاء ولا يستطيع أن يصرّح به لأحد من أصدقائه أو ذوي خاصته:

أتقبله هذه الجامعة بين طلابها حين يتمّ انشاؤها أم تردّه الى الازهر ردّاً غير جميل لانه مكفوف، وليس غير الازهر سبيلاً

الى العلم للمكفوفين ؟ كان هذا الشك المؤلم يؤرّق ليله ويقضّ مضجعه ، ولم يكن يناجي به الا نفسه . كان يستحي أن يتحدث عن آفته تلك الى الناس ، وكان يؤذيه أشدّ الايذاء أن يتحدث الناس عنها اليه ، وما أكثر ما كانوا يفعلون !

عاش اذن بين خوف ملحّ ورجاء ضئيل يعتاده بين حين وحين ، فيتيح لنفسه شيئاً من راحـــة وروح . حتّى اذا أنشئت الجامعة وعلم الفتى علمها ذهب عنه الخوف وملأ الامل نفسه رضا وبهجة وسرورا . واختلف الى دروسه في الازهر ذات يوم فلم يسمع من شيوخه شيئاً ولم يفهم عنهم شيئاً . كان في شغل عنهم وعن دروسهم بما سيكون حين يُقبل المساء . ولأول مرة سمع درس الأدب في الضحى فكان حاضراً كالغائب ، ويقظاً كالنائم ، ولم ينتظر أن تُصلىّ العصر ، وانما سعى الى الجامعة في اعقاب درس البلاغة مع زميليه ، فأدّى كل منهم ذلك الجنيه الذي لم يكن بدّ من أدائه ليؤذن لـــه بالاستماع الى الدروس . وكان غريباً عند هؤلاء الفتية أن يشتروا العلم بالمال وان كان قليلا . فهم لم يتعوّدوا ذلك ولم يألفوه ، وانما تعوّدوا أن يُرزَقوا أرغفة في كل يوم ليطلبوا العلم في الازهر وقد وجدوا بعض ما يقيم الأود . وكان أداء ذلك الجنيه عليهم عسيرا ، ولكنهم أحبوا دروس الجامعة بمقدار ما وجدوا من العسر في أداء ثمنها .

واستمع الفتى لأول درس من دروس الجامعة في الحضارة الاسلامية . فراعه أول ما راعه شيء لم يكن له بمثله عهـــد في

الازهر ، فهذا احمد زكي بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التي لم يسمعها الفتى من قبل : « أيها السادة : أحييكم بتحية الاسلام ، فأقول السلام عليكم ورحمة الله » .

وانما كان الفتى يسمع في الأزهر كلاماً آخر لا يتجه بـه الشيوخ الى الطلاب ، وانما يتجهون به الى الله عز وجـل فيحمدونه ويثنون عليه ، ولا يحيّي فيه الشيوخ طلابهم ، وانما يصلّون فيه على النبي وعلى آله وأصحابه أجمعين !

ثم راع الفتى بعد ذلك ان الاستاذ لم يقل في أول درسه : « قال المؤلف رحمه الله » وانما استأنف الدرس يتكلم من عند نفسه ولا يقرأ في كتاب ... وكان كلامه واضحاً لا يحتاج الى تفسير ، وكان سوياً مستقيماً لا قنقلة فيه ولا اعتراض عليـه . وكان غريباً كل الغرابة ، جديداً كل الجدّة ، ملَكَ على الفتى عقله كله وقلبه كله فشغل عن صاحبيه وشُغل عمن كان حولـه من الطلاب ، وما كان أكثرهم ! حتى اذا أوشك الدرس أن ينقضي ، أعلن الاستاذ أنه سيعيد هذا الدرس بعد دقائق ليتاح للطلاب الكثيرين الذين لم يتح لهم دخول الغرفة أن يسمعوه . وانصرف الفوج الأول من الطلاب ، ولكن صاحبنا لم يرم ، وانما أقام في مكانه حتى سمع الدرس مرة أخرى .

لم ينم الفتى من ليلته تلك ، وسمع المؤذن يدعو الى صـلاة الفجر فلم ينهض من فراشه ، وانما تثاقل وتثاقل ولم يخرج من غرفته الا حين ارتفع الضحى . ولولا درس الادب في الرواق

العباسي لظل في غرفته حتى يقبل المساء.

وقد سمع الفتى درس الادب غير حفيّ به أول الأمـــر، ولكن الشيخ سأله عن شيء فلجلج الفتى وسخر منه الشيخ، وسأله عن هذين المقطفين اللذين رُكبا في رأسه ماذا يصنع بهما، يريد بالمقطفين أذنيه. ومنذ ذلك الوقت أقبل الفتى على درس الادب هذا كما كان يقبل عليه من قبل، فلم يضيّع مما قال الشيخ حرفاً. وسمع بعد ذلك درس النحو فلم يمنح الاستاذ الا أحد مقطفيه هذين، ولعله لم يمنحه مقطفه كله... انمـــا كان يعيش لساعة المساء، ويتعجل ذلك الدرس الذي سيسمعه من احمد زكي بك عن الحضارة المصرية القديمة. وقد سمعه فلم تسعه الارض على رحبها؛ سمع أشياء لم تكن تخطر له عـــلى بال، ولم يكن يتصور أنها قد كانت، أو أن الناس يمكن أن يتحدثوا بمثلها.

وكان تحرّقه الى درس اليوم الثالث أشد وأقوى من تحـــرقه الى الدرسين اللذين سبقاه، فسيكون الاستاذ ايطالياً، وسيتحدث باللغة العربية. ايطالي يتحدث الى المصريين في العلم بلغتهم العربية وفي شيء لم يسمع الفتى وأترابه الازهريون به قبل يومهم ذاك ولم يفهمه الفتى وأترابه. حين سمعوه، أنكرته آذانهم وأنكرته نفوسهم وأذواقهم أيضاً. وكان اسم هذا الشيء الغريب: «أدبيات الجغرافيا والتاريخ».

ما كلمة الادبيات هذه! وكيف تكون في الجغرافيا والتاريخ! وقد أقبل الفتية على الدرس فلم يفهموا شيئاً لانهم لم يسمعوا شيئاً.

كان الاستاذ أغنالسيو جويدي شيخاً كبيراً نحيف الصوت ضئيله جداً لا يبلغ عنه أقرب الطلاب اليه مجلساً ، وكان الطلاب كثيرين ، وكانت ضآلة الصوت تغريهم بالضجيج ، فضاع الدرس الاول في غير طائل بعد أن تعب الاستاذ في القائه وتعب الطلاب في محاولة الاستماع له . واضطرت الجامعة الى أن تختار من الطلاب أرفعهم صوتاً وأفصحهم نطقاً ليبلّغ عن الاستاذ كما يبلّغ أحد المصلين عن الامام حين تقام الصلاة .

ولم ينفق الفتى ثلاثة أيام منذ افتتاح الجامعة حتّى تغيرت حياته تغيراً فجائياً كاملا .

الفصل الثاني

كيف سقطت في امتحان العالمية!

لم يكد صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رثّت الاسباب بينه وبين الازهر ، فأصبح لا يمنحه من الوقت الا اقصره ، ولا يعطيه من الجهد الا ايسره . ولم تكن الجامعة وحدها هي التي صرفته عن الازهر وانما صرفه عنه قبل ذلك زهده فيه ، وضيقه به ، ومله من احاديثه المعادة . وقد انصرف صاحباه عن الازهر ايضاً : ذهب احدهما الى كلية الفرير يعلّم فيها اللغة العربية ، وذهب الآخر الى المطبعة الاميرية يصحح فيها ما كانت تطبع من الكتب ، فلم يبق لصاحبنا في الازهر أرب ، وقد ضاق حتى بأحبّ ما كان في الازهر الى نفسه ، وهو المدرس الشيخ سيد المرصفي ، فأعرض عنه كل الاعراض ، لا زهداً فيه ، ولا نفوراً منه ، ولكن سخطاً على الشيخ رحمه الله لأنه اذعن لشيخ الازهر وأسرف في الاذعان ، وأعرض عن معابثة تلاميذه ، وتوهم ان الجواسيس قد أرصدت له ، وبثّت عليه ، فتحفّظ في كل ما كان يقول ، وكره ان يسمع من تلاميذه بعض ما كانوا يأخذون فيه اذا جلسوا اليه من عبث الشيوخ وخوض

في حديثهم !! وقال للفتى ذات يوم حين اخذ في بعض ذلك : «لا . لا . لا . دعنا نأكل العيش ... !» فتركه الفتى يأكل العيش ... واصبح لا يلقاه الا يوم الجمعة يسعى اليه في بيته ، فينفق معه الساعات حلوة حرة يقول فيها ما يشاء ، ويسمع منها ما يشاء الشيخ ان يقول وما اكثر ما كان الشيخ يقول !

ومنذ ذلك الوقت أيضاً سلك الفتى في حياته طريقاً لم يكن يقدر ان سيتاح له سلوكها ، فاتصل بالجريدة ومديرها الاستاذ لطفي السيد ، وقويت الصلة بينهما حتى كان يلقاه مرات في كل أسبوع ، وكان يلقى عنده من شيوخ المطربشين وشبابهم قوماً كثيرين ، وكانت احاديث الاستاذ وزائريه تفتح للفتى أبواباً من العلم والمعرفة لم تكن تخطر له ببال من قبل ، ولم يكن يقدّر وجودها فضلاً عن اتصاله بها من قريب أو بعيد .

واتصل الفتى كذلك بالشيخ عبد العزيز جاويش – رحمه الله – فأكثر الاختلاف اليه والاستماع له . وما هي الا أن أخذ يجرّب نفسه في الكتابة ، كما جرّب نفسه في الشعر بين يدي استاذه المرصفي . ولم يكد الفتى يأخذ في الكتابة حتى عُرف بطول اللسان والاقدام على ألوان من النقد ، قلما كان الشباب يقدمون عليها في تلك الايام . ولكنه كان نقداً محافظاً غالياً في المحافظة، الا ان يعرض لشئون الأزهر ، فهنالك كان يخرج حتى عن طور الاعتدال ، ويغلو في العبث بالشيوخ ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبد العزيز جاويش ، وربما وجد منه إغراءً بذلك وحثاً

عليه . وكان صاحبنا موزّعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت . أحدهما مذهب الاعتدال والقصد ، ذلك الذي كان الاستاذ لطفي السيد يدعوه اليه ويزيّنه في قلبه . والآخر مذهب الغلو والاسراف ، ذلك الذي كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرّضه عليه تحريضاً . وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعاً . فاذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة ، واذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني .

ولم ينس الفتى قط كلمة كتبها فأورثته ألماً لاذعاً وحزناً ممضاً ، واضطرته الى ان يسعى معتذراً متوسلاً بالصديق الى من كتبت فيه هذه الكلمة . كان ذلك حين اختصم الناس حول سؤال من أسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الادب . فكان ممن شارك في هذه الخصومة زميل أزهري من زملائه كان يعلّم في كلية الفرير . وكان هذا الزميل ينتمي الى أسرة كبيرة ويعدّ انتماءه اليها من مفاخره ، ولكنه لم يكن من هذه الاسرة الا لان أباه كان من عتقائها . فلما ردّ صاحبنا عليه نسبه الى الاسرة وبيّن طبيعة انتسابه اليها لم يرد ايذاء زميله ، وانما أعجبه هذا التعريض فاستجاب له ، ولم يراجع نفسه فيه الا حين قرأه مطبوعاً في الصحيفة . ولامه فيه صاحباه . هنالك أُسقط في يده ولم يرض زميله الا بعد جهد وعناء ، وقد رضي الزميل وصفح ، ولكن الفتى لم ينس هذا الاثم قط ، وما أكثر ما ازدرى نفسه ، وحاول أن يأخذها بألا تضع كلمة في مقال حتى تفكر وتقدر وتتجنّب الايذاء ما وجدت الى ذلك سبيلا !

ولم يكن هذا الندم كل ما جرّ عليه طول اللسان من ألم ، فما أكثر ما كان يتكلّف بالنقد فيمضي فيه مؤمناً به حريصاً عليه لا يحسب لعواقبه حساباً .

ثم تمضي الايام في اثر الايام ، واذا هو قد نسي ما كتب ، وشُغل عنه بأشياء أخرى ، ولكن الناس لم ينسوه وانما حفظوه له ، وقيّدوه عليه ، وأخذوه به حين سنحت الفرصة . وطول اللسان هو الذي قطع الصلة قطعاً حاسماً بين صاحبنا وبين الازهر ، ودفعه دفعاً الى حياته التي أتيحت له ، وعرّضه لسخط أيّ سخط ، وحزن أيّ حزن ، وعناء أي عناء . والغريب انه قد تلقى السخط والحزن والعناء باسماً ، موفور الرضى ، طيّب النفس ، فلم تتعلق نفسه قط بالجلوس الى عمود من أعمدة الأزهر ، ولا بالقاء الدرس في حلقة من حلقاته .

لم يأس اذن على انقطاع الصلة بينه وبين الازهر ، وانما ملأ قلبه الحزن والاسى حين عرف سخط أبيه الشيخ ، وحزن أمه التي كان يختصّها بالحب والبرّ والحنان .

كان ذلك حين أنشأ الشيخ رشيد رضا — رحمه الله — شيئاً سمّاه مدرسة الدعوة والارشاد ، وأعلن أن هذه المدرسة ستعدّ طلابها من الازهريين لدعوة غير المسلمين الى الاسلام ، ولارشاد المسلمين أنفسهم الى دينهم الصحيح المبرأ من أوهام القرون وأباطيلها . وقد ضاق المجددون من أبناء الازهر بهذه المدرسة أشد الضيق ، وسخطوا عليها اعظم السخط . رأوا فيما أحاط بانشائها من

الظروف انحرافاً عن الوفاء للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده من رجل كان يرى نفسه أقرب تلاميذ الشيخ اليه ، وأخصّهم بـه وأوفاهم له . فقد عطف الخديو على هذه المدرسة وأعانها وأغرى شيوخ الازهر بتأييدها . ورأى تلاميذ الاستاذ الامام ان في عطف الخديو على هذه المدرسة وإعانته لها ما أثار في نفوسهم الريب فنفّروا الناس منها ، وأطلقوا ألسنتهم فيها ، وعابوا على الشيخ رشيد انه ثاب الى من أخرج الاستاذ الامام من الازهر وعرّضه لكثير من الشر والاذى وأغرى به الشيوخ ، حتى أذاعوا عن الشيخ ما أذاعوا من السوء ، ونالوه بما نالوه من المكروه .

وفي ذات يوم أقام الشيخ رشيد وأصحابه حفلاً بهذه المدرسة ، واجتمعوا حول مائدة العشاء في فندق من فنادق القاهرة يقال له فندق « سافوي » . ونشرت بعض الصحف انباء زعمت فيها أن أكواب الشمبانيا أديرت حول هذه المائدة . وكان جماعة من شيوخ الازهر يتقدّمهم شيخهم الاكبر قد شهدوا هذا العشاء ، ورأوا ما أدير فيه من الأكواب فلم ينكروا بالعمل ولا بالقول .

هنالك ثارت ثائرة المخلصين للازهر ، فلهجوا بالشيوخ وقالوا فيهم فأكثروا القول . ودافع المدافعون عن الشيوخ بأن زجاجاتٍ فُتحت في ذلك العشاء وكان لفتحها فرقعة ، ولكنها لم تكن زجاجات الشمبانيا ، وانما كانت زجاجات الكازوزة ! ولكن خصوم الشيوخ من أبناء الازهر لم يقبلوا هذا الدفاع ، ولم يصدّقوه ، وانما مضوا يلهجون ويقولون في الشيوخ فيكثرون القول ،

وكان صاحبنا الفتى أطولهم لساناً ، وأجرأهم قلماً ، وأجرحهم لفظاً . عاب الشيوخ شعراً ونثراً ، ونشر عبد العزيز جاويش له ذلك في صحيفة « العلم » فرضي المجددون وأغرقوا في الرضى ، وسخط المحافظون وأسرفوا في السخط ، وتناقل أولئك وهؤلاء هذه الابيات الثلاثة من شعر الفتى الذي لم ينسبه الى نفسه ، وانما زعم أنه تلقاه في البريد :

رعى الله المشايخ اذ تـوافوا
الى سافواي في يوم الخميس
واذ شهدوا كؤوس الخمر صرفا
تدور بها السقاة عـلى الجلوس
رئيس المسلمين عـداك ذم
الا لله درّك من رئيس

ثم مضت الايام وتتابعت فيها الاحداث ، حتى اذا دار العام رأى الفتى نفسه يتهيأ للامتحان في الازهر لينال درجة العالمية . وقد تلقى الفتى ما كان يسمى حينئذ بالتعيين ، وهو الدروس التي يجب أن يُعدّها ليلقيها أمام لجنة الامتحان ، ويثبت لمناقشة الممتحنين فيهـا .

فاستعد الفتى وأحسن الاستعداد ، وحفظ فأحسن الحفظ ، حتى اذا لم يبق بينه وبين شهود الامتحان الا سواد الليل ، أقبل عليه شيخه المرصفي ـ رحمه الله ـ فأنبأه هذا النبأ العجيب الذي لم يحمله اليه في ضوء النهار ، وانما حمله اليه في ظلمة الليل ،

بعد أن صلّيت العشاء .

قال الشيخ :

ــ اذا أصبحت يا بنيّ فاستقل من الامتحان ولا تحضره من عامك هذا ، فان القوم يأتمرون بك ليسقّطوك .

قال الفتى : ــ وما ذاك !

قال الشيخ :

ــ تعلم أني عضو في لجنة الامتحان التي ستحضر أمامها غداً ، والتي يرأسها الشيخ دسوقي العربي . فقد دعي رئيس اللجنة الى الشيخ الاكبر وأمر باسقاطك مهما تكن الظروف .

قال الفتى :

ــ ولكني سأحضر أمام لجنة أخرى يرأسها الشيخ عبد الحكيم عطا .

قال الشيخ :

ــ فان هذه اللجنة لن تجتمع لان رئيسها أبى أن يسمع للشيخ الاكبر حين أمره باسقاطك . فلما ألحّ الشيخ الاكبر عليه ألحّ هو في الاباء ، فلما خيّره الشيخ الاكبر بين اسقاطك وبين ألا تجتمع لجنته آثر ألا تجتمع اللجنة ، وقال انما هو غداء وثلاثون قرشاً ...

وأبى الفتى أن يستقيل على رغم الحاح الشيخ المرصفي عليه في ذلك ، ونام ليلته هادئاً موفوراً ، واستقبل صباحه راضياً مسرورا ، وغدا على لجنة الامتحان ، وكانت مجتمعة في مكان في

الدراسة لا يعرف الفتى أقائم هو أم درس فيما درس من المنازل والدور .

غدا على لجنة الامتحان فألقى التحية ، وجلس ، وكان أعضاء اللجنة يشربون الشاي .

قال الرئيس للفتى :

ـ هل أفطرت ؟

قال الفتى :

ـ نعم .

قال الرئيس :

ـ فأتمم هذا الكوب الذي شربت نصفه لتحصل لك البركة .

وأخذ الفتى من الشيخ كوبه مبتسماً ، وشرب ما فيه متكرهاً . ثم أخذ في الدرس الاول فأنفق فيه ساعتين ونصف ساعة ، ولقي فيه من المناقشة أشدها ، ومن الجدال أعنفه . وفي أثناء ذلك دخل الشيخ الاكبر ، فلم يسلّم ، وانما قال :

ـ حرام عليك يا شيخ دسوقي حرام عليك ، ارفق به ! ارفق به !

ثم انصرف ..

ولم يرفق الشيخ دسوقي بالفتى ، وانما أضاف شدة الى شدة ، وعنفاً الى عنف ، وانقضى الدرس الاول . وقيل للفتى اذهب

فاسترح .

وخرج الفتى فاذا كرسي قد وُضع الى جانب الباب ، وجلس عليه الشيخ الاكبر كأنه ينتظر شيئاً .

ولم يكد يرى الفتى حتى دعا شيخاً من الشيوخ كان هناك وقال له :

ـ خذه يا شيخ ابراهيم فاسقه فنجاناً من القهوة !

وفي انتظار هذا الفنجان أقبل من حمل المحفظة الى الفتى ايذاناً بأنه قد سقط ، وبأن اللجنة لا تريد أن يتم ما بقي له من الدروس .

الفصل الثالث

أثر احتفار المرأة ...

وعاش الفتى وصاحباه أعواماً غرباء عن الازهر قريبين منه ، يلمّون به بين حين وحين ، ان أتيح لهم ذلك . فيجلسون في مجلسهم ذلك بين الادارة والرواق العباسي ، ويتندرون كما أحبوا ان يفعلوا دائماً بالمقبلين على الازهر والخارجين منه ، وبالشيوخ والطلاب . وربما قرأ عليهم احدهم الزيات في هذا الكتاب او ذاك من كتب الادب القديمة او الجديدة . وربما قرأ عليهم هذه الصحيفة او تلك من صحف المساء ، فأخذوا في حديث السياسة وخطوبها ، او في ذكر كتّاب تلك الايام وشعرائها ، يلمّون بهذا كله ولا يمعنون فيه . فقد كانوا في تلك الساعات لا يكرهون شيئاً كما كانوا يكرهون اخذ الامور مأخذ الجد .

كانوا يقصدون الى الازهر ليلهوا ويلعبوا ، لا ليعملوا ويجدّوا ، فقد استقر في نفوسهم ان للمجد مكاناً غير الازهر ، هو الجامعة اذا كان المساء ، وهو دار الكتب اثناء النهار . وربما شاقهم طعام الازهر ، فذهب ثالثهم الزناتي فاشترى لهم من هذا الطعام ،

واقبلوا عليه كلفين به ساخرين منه ، ومن الذين يعيشون عليه ، ومن انفسهم حين كانوا يعيشون عليه . فقد تغيرت احوالهم شيئاً ؛ عمل احدهم مدرساً في كلية القرير ، وعمل الآخر مصححاً في المطبعة الاميرية ، واصبح لكل منهما مرتب في آخر الشهر يتيح له شيئاً من سعة ، وينأى به عن حياة الازهر تلك القاسية الجافية ، وعن طعام الازهر ذلك الخشن الغليظ . ولم يكن صاحبنا الفتى معلماً ولا مصححاً ، ولم يكن له مرتّب في آخر الشهر أو أوله . ولكن حياته مع ذلك لانت بعض اللين . فقد ظل الشيخ يرسل اليه والى أخيه وابن خالته ما تعوّد أن يرسل من الزاد والنفقة على اتساع فيهما قليل . واضيف الى ذلك ما كان اخو الفتى يأخذه من مدرسة القضاء في كل شهر ، وما كان ابن خالته يأخذه من دار العلوم في كل شهر ايضاً . وكان كلاهما يصيب غداءه في المدرسة التي يختلف اليها ، وكان صاحبنا قد خلّى بينه وبين ما يتاح له من طعام أثناء النهار ، ليس ليناً ولا رقيقاً ، ولكنه خير من طعام الازهر على كل حال . واتيح للفتى ان يصيب من الطعام المطبوخ مرتين في الاسبوع ، فكان طعام الازهر بالقياس اليه خشناً غليظاً وكان ربما استطرفه بين حين وحين .

وقد جعل هؤلاء الفتية الثلاثة يحيون حياة الادباء في تلك الايام . وكانت حياة الادباء في تلك الايام مزاجاً غريباً من متعة تُختلس بين حين وحين ومن بؤس نفسي يفرضونه على انفسهم وان لم تفرضه عليهم الحياة . فالاديب عندهم وعند غيرهم في تلك الايام بائس بطبعه ، طامح بطبعه الى النعيم ، يتخذ البؤس لنفسه

عشيراً ، ويجعل النعيم لنفسه حلماً ، ويختلس المتعة القصيرة بين حين وحين ان اتيح له ان يخرج من حياته المألوفة الى رياضة في الضواحي ، او تنزه في الحدائق ، او جلسة في قهوة من القهوات .

وكانت حياة الاديب فيما وراء ذلك الواناً من الرضا والسخط تأتيه من قراءاته الكثيرة المختلفة ، قوامها أن يفكر كما كان يفكر القدماء الذين يقرأ آثارهم ويشعر كما يشعرون ، ويسير في الناس كما كانوا يسيرون . وقد الحّ أولئك الفتية في قراءة الشعر الجاهلي والاسلامي والعباسي وحفظه ، كما الحوا في قراءة اخبار الشعراء والكتاب وعلماء اللغة . فعاشوا عيشة اولئك الناس في دخائل نفوسهم وان لم يستطيعوا ان يعيشوها في حياتهم الواقعة ، لان الظروف كانت تحول بينهم وبين ما كانوا يريدون من ذلك . وهم قرأوا شعر أبي نواس واصحابه ، وقرأوا شعر الغزليين العذريين فاستحبّوا من الغزل ما استحبّ اولئك الشعراء ، وذهبوا فيه مذاهبهم المختلفة . حافظ منهم من حافظ فآثر شعر العذريين وغزلهم ، وجدّد منهم من جدد فآثر شعر العباسيين وغزلهم ، وخلقوا لانفسهم مثلاً للجمال يتغزلون فيها ويشببون بها ، ولم يكن للمحافظين منهم بد من ان يخترعوا مثلهم العليا اختراعاً . فقد كانت الحياة تحول بينهم وبين لقاء الغواني . ولكن المجددين كانوا خيراً منهم حظاً . فلم يكن من الممتنع أن يلقوا في الازهر أو خارج الازهر بعض الوجوه الصباح ، وان يتخذوا لغزلهم موضوعات لا يخترعه لهم الخيال ، وانما تعرضه عليهم الحياة .

وكذلك وجد بين هؤلاء الفتية من كان يذهب مذهب جميل وكثيّر ، وكان الحرمان المطلق محتوماً عليه ، كما كان منهم من يذهب مذهب ابي نواس وأصحابه . وكان حظه من الحرمان اقل ، ونصيبه من النعيم اكثر . فهو كان يستطيع ان يلقى اصحاب الوجوه الصباح وان يقول لهم ويسمع منهم ، ويهيم بهم ، ويقول فيهم الشعر ويذهب في هذا الشعر المذاهب ، وربما ورّطه هيامه وشعره وورّط معه صاحبيه في الشر القليل أو الكثير .

وكان ثالث هؤلاء الفتية نواسي الشعر ونواسي الهوى ، وما أسرع ما الف افراداً من ذوي الوجوه الحسان واطمـأن اليهم واكثر من لقائهم ، يسعى اليهم وحده في مجالسهم ، وربما دعا احدهم الى مجلسه مع صاحبيه . وصاحباه يضحكان منه ويعبثان به اول الامر ، ثم يرثيان له ويلحّان عليه بالنصح بعد ذلك ، يؤدون اليه ما يحبّون من العبث به والنصح له ، بالحديث مرة وبالشعر مرة اخرى . ولكنه لا يحفل بعبثهما ولا بنصحهما . وانما يمضي مع هواه لا يلوي على شيء حتى اصبح حديث اترابه ، وحتى اقبل الفتية ذات يوم الى مجلسهم ذاك من الرواق العباسي فوجدوا بعض الزارين على عبثهم قد كتب لهم على الجدار الذي كانوا يستندون اليه هذين البيتين اللذين كتبهما شاعر قديم لابي عبيدة معمر بن المثنى :

صلى الاله على لـوط وشيعته
أبا عبيـدة قل بالله آمينـا

فأنت عندي بلا شك بقيتهم

. . . .

ولم يكد صاحبا الفتى يريان هذا الشعر حتى اخذهما ما يشبه الصاعقة . وضحك صاحبنا ، واغرق في الضحك ، وثاب صاحباه الى مثل ما كان فيه . فضحكا معه واغرقا في الضحك ايضاً ، ولكن بغضهم لزملائهم من طلاب الازهر زاد اضعافاً مضاعفة . وجعل الفتى النواسي يبحث عن كاتب هذين البيتين دون ان يصل من بحثه الى شيء . ولكنه رجح لغير سبب ان خصمه انما هو ذلك الطالب الاسود الذي كان ينافسه في دروس النحو والذي كان يبغضه اشد البغض ، فاتخذه لنفسه عدواً وجعل يتعمد أيذاءه كلما وجد الى ايذائه سبيلا . فكان لا يراه — وما اكثر ما كان يراه — الا رفع صوته بهذين البيتين اللذين حفظهما فيما زعم عن ابيه :

في الهند طير ناطق
سبحان من قد ألهمه
يقول في تسبيحه
ابن الامه ما الأمه

ومنذ ذلك الوقت اسرف ذلك الفتى النواسي على نفسه وعلى صاحبيه وعلى زملائه من الطلاب . فكان يتتبع سيئاتهم واغلاطهم ويزيد فيها ويضيف اليها ويقول في ذلك الشعر ، حتى اصبح هجاء ، وكان لا يحتفظ بهجائه لنفسه ولصاحبيه ، وانما يجهر به كلما وجد الى الجهر به سبيلا . وربما احتال حتى ينشد شعره

ذاك بأرفع صوته ليسمعه من قبل فيهم من الطلاب . ثم عظم في نفسه الوهم واستأثر بها حب الشر ، فكان كلما رأى احداً ينظر اليه فيطيل النظر او ينظر الى بعض اصحابه اولئك الحسان اتخذه لنفسه عدواً وهجاه . ثم بدا له ان الهجاء وحده لا يُغني عنه شيئاً فعمد الى شر منه ، وجعل يكتب الى ادارة الازهر والى الشيخ الاكبر خاصة ، الرسائل في كل يوم . يسعى بها عنده في هؤلاء الطلاب الذين اتخذهم لنفسه عدواً .

وضاق الشيخ الاكبر بهذه الرسائل التي جعلت تصبّ عليه في كل يوم كما ينصب المطر من السماء ، واذا الادارة تعلق ذات يوم في لوحة الاعلانات تنبيهاً تدعو فيه الطلاب الى ان يكفّوا عن هذه الخطة التي ينكرها الخلق ويحرمها الدين ، وهي السعي بالسوء في الشيوخ والطلاب عند المشيخة . وقد قرأ الفتى النواسي هذا التنبيه ذات يوم بين هذه الاعلانات الكثيرة التي كان الطلاب يعلقونها يعلنون فيها ان نعالهم قد ضاعت منهم وان من وجدها فليردّها الى صاحبها وان من سرقها فهو جدير بأن يغضب الله عليه ويقطعه من هذا المكان .

قرأ الفتى النواسي هذا التنبيه بين تلك الاعلانات ، فامتلأ قلبه غبطة وابتهاجاً ، وزعم انه قد فاز فوزاً عظيماً لانه ضايق الشيخ واحرجه . والح في كتابة رسائله تلك امعاناً في مضايقة الشيخ واحراجه ، ولم يكفّ عن ذلك الا حين كفّ صاحباه عن الإلمام بالازهر مخافة سوء العاقبة ، واضطر هو الى ان يهجر الازهر

كما هجره صاحباه .

على ان صاحبنا الفتى لم يلبث ان شغل او كاد يشغل عن صاحبيه بياض النهار . فقد كان يخلص لحياته هذه الجديدة التي أخذ يحياها منذ قرأ لنفسه اول مقال نشرته له الصحف . ارضاه ذلك عن نفسه واطمعه في المزيد منه ، فجعل يكتب في الجريدة رغبة في الكتابة احياناً ، وتقرّباً بها الى مدير الجريدة احياناً اخرى . وجعل مدير الجريدة يرضى عن فصوله ويغريه بالكتابة ويحثّه عليها حثاً ويعلمه القصد في اللفظ والاناة في التفكير .

وما هي الا ان جعل يقرّبه اليه ويدعوه الى زيارته حتّى اصبح الفتى ملازماً لمكتب المدير ، يلم به في اكثر ايام الاسبوع حين يرتفع الضحى فلا يحجب عنه ، وانما يلقاه الاستاذ المدير هاشّاً له ، مرحّباً به ، آخذاً في التحدث اليه والاستماع منه ، فاتحاً له ابواباً من التفكير ، لم تكن تخطر له على بال ، خائضاً معه في حديث الأدب القديم ، راوياً له من الشعر ما كان يحفظ وما لم يكن قد سمعه من قبل ، حتّى استأثر بقلب الفتى وعقله وحتّى اصبح للفتى استاذان يختصّهما بحبه واعجابه ، احدهما يذكّره بأئمة البصرة والكوفة وهو الشيخ سيد المرصفي ، والآخر يذكّره بفلاسفة اليونان الذين سمع اسماءهم في الازهر وجعل يدرس اطرافاً من فلسفتهم في الجامعة ، وهو لطفي السيد .

وكان الفتى يختلف مع ذلك الى الشيخ عبد العزيز جاويش

رحمه الله فيسمع له صوتاً عذباً وحديثاً ليناً رقيقاً ، ويرى من وراء هذا اللين وتلك العذوبة عنفاً اي عنف ان ذُكرت السياسة أو ذكر الازهر وشيوخه او ذكر بعض الكتّاب الظاهرين الذين لا يكتبون في صحف الحزب الوطني . وكان يحبّب العنف الى الفتى ويرغّبه فيه ويزيّن في قلبه الجهر بخصومة الشيوخ والنعي عليهم في غير تحفّظ ولا احتياط . فهو كان يرى انهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كانوا يلجّون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بممالأتهم للخديو ومصانعتهم للانجليز .

وكان بغضه لسعد زغلول رحمه الله معروفاً يتحدث به الناس . هجاه بمقالاته المشهورة التي جعل عنوانها : « ظلموك يا سعد » . وهجاه هجاء منكراً في بعض الشعر الذي لم ينشره لانه كان اعنف من ان ينشر .

وقد أنشدني قصيدة قالها في السجن وقد بلغه ان سعداً قد يعود الى الوزارة او يصبح رئيساً لمجلس الوزراء . لم احفظ منها الا مطلعها وهو بشع كما ترى :

ان صح ما انهى الـــرواة لمسمعي
فلسوف نصبح تحت حكم الاقرع

وعلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله يقع نصيب غير قليل من ثقل تلك الفصول الطوال السمجة التي كتبها الفتى ، فشغل بها الادباء والمثقفين حيناً ، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكرت له . وكان موضوعها نقد « نظرات »

المنفلوطي رحمه الله . وكان عنوانها : « نظرات في النظرات » .

قرأ الفتى الفصول الاولى من نظرات المنفلوطي راضياً عنها، معجباً بها ، ثم لم يلبث ان سئمها وانصرف عنها . ولكنه لم يكد يراها مجموعة في كتاب حتى ضاق بها اشد الضيق ، وكتب يعيبها ويغض منها . وفرح الشيخ عبد العزيز جاويش بما كتب الفتى اشد الفرح واستزاده من الكتابة وحرّضه عليها والح في التحريض ، حتى القى في روعه الا يدع فصلاً من فصول المنفلوطي الا اختصه بفصل من النقد . وكان الفتى قديم المذهب في الادب لا ينظر منه الا الى اللفظ ولا يحفل من اللفظ الا بمكانه من معجمات اللغة . فكان عيب المنفلوطي عنده انه يخطىء في اللغة ويضع الالفاظ في غير مواضعها ويصطنع الفاظاً لم تثبت في « لسان العرب » ولا في « القاموس المحيط » .

وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف الى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة . ولم ينس الفتى مقالاً دفعه ذات مساء الى الشيخ عبد العزيز جاويش ، فلم يكد يقرأ أوله حتى طرب له وأبى الا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك . وابتهج الفتى حين سمع الثناء وأحس الاعجاب واستيقن أنه أصبح كاتباً ممتازاً . ثم لم يذكر بعد ذلك أول هـــذا المقال حتى طأطأ من رأسه ومن نفسه وسأل الله أن يتيح له التكفير عن ذنبه ذاك العظيم . وكان أول المقال : « عم صباحاً أو مساء ، واشرب هواء أو ماء ، واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضح الحق وبرح الخفاء » .

كان بعض تبعة هذا السخف يقع على الشيخ عبد العزيز جاويش ، ولكن للشيخ عبد العزيز جاويش فضلاً على الفتى أيّ فضل ، فهو الذي ألقى في روع الفتى فكرة السفر الى أوروبا حين قال له ذات يوم : « لا بد من أن نصنع شيئاً لارسالك الى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام » . لم يكد الفتى يسمع هذه الالفاظ حتى استقرّ في نفسه أن ليس له بد من عبور البحر على أي نحو من الانحاء. وقد لاحظ الفتى فيما بعد أن أحاديثه تلك عن المنفلوطي قد شغلت الناس حتى تحدث اليه فيها كل من كان يلقاه الا رجلاً واحداً لم يشر اليها قط على كثرة ما كان يلقى الفتى وعلى كثرة ما كان يتحدث اليه ، وهو مدير الجريدة لطفي السيد.

فهم الفتى ولكن متأخراً ان لطفي السيد لم يرض قط عن هذه الفصول . ولو قد رضي عنها ، وعن بعضها لتحدث اليه فيها ، وهو الذي كان كثيراً ما يشجع الفتى فيتنبأ له مرة بأنه سيكون موضعه من مصر موضع فولتير من فرنسا ، ويقول له مرة أخرى أنت أبو العلائنا . يتعمد إثبات الألف واللام على رغم الاضافة في اسم أبي العلاء ، ثم يضحك ويغرق في الضحك حين يرى تنكّر الفتى للجمع بين الاضافة واداة التعريف .

أصبح الفتى كاتباً بفضل هذين الرجلين : لطفي السيد وعبد العزيز جاويش . وأصبح كاتباً لشيء آخر : وهو أنه أثناء الاعوام العشرة الاولى من كتابته في الصحف لم يكتب الا حباً للكتابة ورغبة فيها ، لم يكسب بها درهماً ولا مليماً .

الفصل الرابع

عندما خفق القلبُ لأوّل مرّة !

.. على أن فضل الشيخ عبد العزيز جاويش على الفتى لم يقف عند هذا الحد وانما تجاوزه فأمعن في تجاوزه ، فهو الذي عرّف الفتى الى جماهير الناس ووقّفه بين أيديهم ذات صباح منشداً للشعر ، كما كان يفعل الشعراء المعروفون ، وحافظ منهم خاصة ، في بعض المناسبات العامة .

كان الناس قد ألفوا الاحتفال برأس العام الهجري كلما انقضى عام هجري ، واقبل عام جديد . وكان الشيخ عبد العزيز جاويش يحرص على أن يكون للحزب الوطني احتفاله بهذا اليوم ، فأقام حفلة ذات عام في مدرسة مصطفى كامل ، واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شباباً وكهولاً وشيبة . وكان الفتى قد أنشأ فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة ، وأنشدها أمام الشيخ عبد العزيز جاويش ، فرضي عنها وحثّه على أن يقول أمثالها .

فلما كان هذا الحفل شهده الفتى مع الشاهدين ، ولكنه لم يكد يتخذ مكانه بين الناس ، حتى اقبل من أخذ بيده واجلسه على

المنصّة . ولم يقدر الفتى في نفسه الا ان الشيخ عبد العزيز جاويش قد أراد ان يرفق به ويتلطف له ويقرّبه من مجلسه ، فرضي عن ذلك كل الرضى ، وعدّه فضلاً من الشيخ عظيمــاً . والقيت الخطب وصفق المصفقون ، ولم يرع الفتى الا ان سمع اسمه يعلن الى الناس ورأى نفسه يدعى الى انشاد قصيدته العصماء ! فلبث في مكانه جامداً واجماً لا يدري ماذا يصنع ولا يعرف كيف يقول ، وأقبل من أخذ بيده ، وهمّ الفتى أن يمتنع حياء وخجلاً . ولكن الذي أخذ بيده جذبه جذباً شديداً وجعل الذين من حوله يدفعونه وينهضونه حتى انهضوه وجرّوه جراً الى المائدة . واستقبل الفتى بتصفيق شديد منحه قوة وجرأة فأنشدَ قصيدته في صوت ثابت ممتلىء ، ولكنه لم يكن يستقر في موقفه ، وانما كان جسمه يرتعد ارتعاداً ، واستقبلت قصيدته احسن استقبال وأروعه حتى خيّل الى الفتى أنه قد أصبح حافظاً أو قريباً من حافظ .

ثم مرّت الأعوام وتبعتها الاعوام ، واختلفت على الشيخ وعلى الفتى خطوب اي خطوب ، وتعاقبت احداث في مصر أي احداث . وجلس الفتى ذات مساء الى صديق له كريم ، وقد جاوز الفتى سن الشباب والكهولة ، وأخذ في ذكر الصبا وأيام الطلب . وانسي الشيخ شبابه وصباه وشغل عن حياته الماضية ، واعرض عن الشعر كل الاعراض بعد أن استبان له أنه لم يقل الشعر قط ، وانما قال سخفاً كثيراً .

واذا الصديق الكريم يذكّره بموقفه ذاك في مدرسة مصطفى

كامل وانشاده قصيدته تلك ، ويذكر له مطلع تلك القصيدة ، فيرثي الشيخ لما أضاع من شبابه وما أنفق من جهده في غير طائل ولا غناء. ثم لم يقف الشيخ عبد العزيز جاويش بالفتى عند هذا الحد ، ولكنه علّمه الكتابة في المجلات ، فقد أنشأ مجلة « الهداية » وطلب الى الفتى أن يشارك في تحريرها ، ثم ترك له او كاد يترك له الاشراف على هذا التحرير ، وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من اعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول. ولم تخل « الهداية » من جدال عنيف دفع اليه الفتى دفعاً. وكان خصمه الشيخ رشيد رضا ، وقد اسرف الفتى على نفسه وعلى الشيخ رشيد في ذلك الجدال. وكتب احاديث استحى منها فيما بعد حين ذكرت له ، ولكن الشيخ عبد العزيز كان عنها راضياً وبها كلفا. وقد أجاز نشرها وشجّع الفتى على المضيّ فيها. كان يمقت من الشيخ رشيد ممالأته للخديو وانحرافه عن طريق الاستاذ الامام. وما دفع اليه من اعجاب بنفسه واغترار بثناء الناس عليه واعجابهم به.

ثم أضاف الشيخ الى كل هذا الفضل فضلاً آخر وقع من نفس الفتى موقع الماء « من ذي الغلة الصادى » أرضاه عن بعض حاله وأكبره في نفسه شيئاً ، وأشعره بأن قد اتيح له أن يجلس مجلس المعلم ، وأن يكون له تلاميذ كثيرون بعد ان حال الازهر بينه وبين ذلك.

فقد أنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش مدرسة ثانوية كما أنشأ مصطفى كامل مدرسة ، وكلّف الفتى أن يعلم فيها الادب على

الا ينتظر على ذلك أجرا . فالمدرسة عمل وطني لا أجر عليه لمن يشارك فيه ، ولم يكن الشيخ يفيد من هذه المدرسة شيئاً ، وربما أنفق عليها من رزقه وكلف نفسه في سبيل ذلك شيئاً من الحرمان ، وربما الح على بعض الاغنياء وأوساط الناس حتى استكرههم على أن يعينوه على نفقاتها ببعض المال . وقد اقبل الفتى على تعليمه ذاك فرحاً به مبتهجاً له ، يرى فيه شفاء لغيظه من الازهر ، ويرى فيه مع ذلك مشاركة في بعض الخير .

ثم لم يلبث هذا كله ان انقطع فجأة ، صُرف الشيخ عنه باحداث السياسة ثم اضطر الى أن يهاجر من مصر على غير انتظار لهجرته ، ولم يره الفتى منذ ودعهم ليلة سفره الا بعد أعوام طوال ، بعد أن عاد عودته تلك ، فقد سافر من مصر فجأة وعلى غير علم من أهلها ، وعاد الى مصر فجأة وعلى غير علم من أهلها أيضاً.

وهو على كل حال قد أعان الفتى على الخروج من بيئته تلك المغلقة الى الحياة العامة ، وعلى أن يكون له اسم معروف . ومثل ذلك فعل الاستاذ احمد لطفي السيد ، فعرّف الفتى الى كثيرين من الذين كانوا يلمّون بمكتبه في الجريدة من الشيوخ والشباب ، وفي مكتبه اتصل برفاق له أحباء عمل معهم فيما بعد ولقي معهم خطوباً أي خطوب . عرف عنده هيكل ومحمود عزمي والسيد كامل . وكامل البنداري واتراباً لهم كثيرين ، وعرف بفضله لوناً من المعرفة لم يكن يُقدّر أنه سيتاح له في يوم من الأيام .فقد لقي عنده ذات يوم تلك الفتاة التي كان الناس يتحدثون عنها فيكثرون

الحديث ، لا لأنها كانت جميلة فاتنة ولا لأنها كانت جذابة خلابة ، ولكن لانها كانت طامحة ملحّة في الطموح ، ظفرت لاول مرة بالشهادة الثانوية ، وكانت أول فتـــاة ظفرت بها ، وهي نبوية موسى .

وكان الفتى قد لقي السيدات في بيئته تلك الريفية ، ولكنه لم يلق منهن القارئة الكاتبة البرزة التي تظهر في مجالس الرجال وتحاورهم ، فتلجّ في المحاورة وتخاصمهم فتعنف في الخصام ، قبل أن يلقى تلك الفتاة .

واحتُفل ذات مساء في حجرة من حجرات الجامعة القديمة بتكريم خليل مطران رحمه الله ، وكان الخديو قد أهدى اليه وساماً ، وكان شقيق الخديو الامير محمد علي رئيساً لهذا الاحتفال . وكان الشعراء سينشدون فيه الشعر ، وكان الخطباء سيلقون فيـــه الخطب فاعتذر الفتى الى أستاذه في الجامعة من حضور الدرس ، ولم يكن يكره شيئاً كما كان يكره التخلف عن الدروس ، وآثر شهود ذلك الحفل . وفيه سمع كثيراً من الشعر وكثيراً من الخطب ، فلم يحفل بشيء مما سمع ، لم يعجبه شعر حافظ في ذلك المقام ، مع أنه كان كثير الاعجاب بشعر حافظ . ولم تعجبه قصيدة مطران لانه لم يفهم منها شيئاً ، ولم يذق منها شيئاً ، وربما احسّ فيها اسرافاً من الشاعر في التضاؤل أمام الامير الذي أهدى اليه ذلك الوسام . فقد شبّه نفسه بالنبتة الضئيلة وشبّه الامير بالشمس التي تمنحها الحياة والقوة والنماء . لم يرضَ الفتى عن شيء مما سمع

الا صوتاً واحداً سمعه فاضطرب له اضطراباً شديداً وأرق له ليلته تلك . كان الصوت نحيلاً ضئيلاً ، وكان عذباً رائقاً وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه في خفة الى القلب فيفعل به الافاعيل . ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئاً ، ولم يحاول أن يفهم من حديثه شيئاً . شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث. وكان صوت الآنسة مي التي كانت تتحدث الى جمهور من الناس للمرة الاولى . ولم يستطع الفتى حين أصبح من ليلته تلك أن يمتنع عن السعي الى مدير الجريدة وقد جلس اليه فقال له وسمع منه . ثم ما زال يدور بحديثه حتى انتهى الى حفل مطران ، وحتى انتهى من حفل مطران الى ذكر تلك الفتاة التي تحدثت فيه ، والتي لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذاك . وقد سأله مدير الجريدة عمـا قالت الفتاة فلم يحسن عليه رداً ، وانما لجلج في القول ، وأثنى الاستاذ على مي وأنبأ الفتى بأنه سيقدمه اليها في يوم قريب . وابتهج الفتى بهذا الوعد وان لم يعرب عن ابتهاجه ، وظل يرقب البرّ به ، ولكن الاستاذ نسيه ، واستحيا الفتى أن يذكره فحمل نفسه على المكروه ، وما أكثر ما كان يحملها على المكروه ، وأعرض عن ذكر ميّ واجتنب حديثها الى الاستاذ . ومضت أيام وشهور وظفر الفتى من الجامعة بدرجة الدكتوراه ، وأعطى رسالته عن أبي العلا الى مدير الجريدة فقرأها ورضي عنها ، ولكنه لم يردّها الى الفتى ، وانما قال له انما سترد اليك رسالتك بعد أيام ، لأن الآنسة مي قد طلبت أن تقرأها ، وسمع صاحبنا ذكر مي فبدا عليه فيما يظهر شيء من وجوم . وكأنّ الاستاذ لاحظ ذلك فذكر وعده القديم وقال للفتى في رفق :

ألم أعدك بتقديمك اليها ؟

قال الفتى :

ـ أكاد أذكر ذلك .

قال الاستاذ :

ـ فالقني مساء الثلاثاء فسنزورها معاً .

وفي مساء الثلاثاء رأى الفتى نفسه لاول مرة في حياته في صالون فتاة تستقبل الزائرين من الرجال ، حفيّةً بهم معاتبة لهم في رشاقة أي رشاقة ، وفي ظرف أي ظرف ، وفي حديث عذب يخلب القلوب ويستأثر بالالباب .

وطال المجلس وكثر الزائرون ، ودارت أكواب الشاي والفتى في مكانه لا يكاد يحس من ذلك شيئاً ، قد ملك الوهم والوجل عليه أمره كله . فهو لم يشهد مثل هذا المجلس قط . وليس له عهد بمثل ما يجري في مثل هذه المجالس من المراسم ولا بما يتبع فيها من التقاليد والعادات . فهو منكر لنفسه ، منكر لمن حوله وما حوله ، الا شخصين اثنين هما الاستاذ لطفي السيد والآنسة مي .

وقد أخذ الزائرون في الانصراف ، ورغب الفتى فيه ليخلص من حرجه ، وأشفق منه حرصاً على صوت مي وحديثها ، ولم يحاول أن ينصرف . فما كان له أن يحاول ذلك قبل أن يؤذنه به الاستاذ .

وقد انصرف الزائرون جميعاً وخلا للاستاذ وتلميذه وجه

مي فخاضت مع الاستاذ في بعض الحديث وأثنت للفتى على رسالته في أبي العلاء ، فأغرقت في الثناء ، واستحيا الفتى شيئاً ولم يحسن أن يشكر لها ثناءها . ولكن الاستاذ يطلب الى الفتاة أن تقرأ عليه مقالها ذاك . فتتردد الفتاة شيئاً ثم تقدم بعد أن تعلن الى الفتى أنها انما تقرأ على الاستاذ هذا المقال لانه هو الذي يعلمها العربية ويعلمها الكتابة .

قال الفتى في صوت مختنق ولفظ مجمجم :

ـ كما يعلّمني أنا .

قالت مي :

ـ فنحن اذن زميلان .

وقرأت المقال وكان عنوانه « وكنت في ذلك المساء هلالا . »

وسحر الفتى ورضي الاستاذ وانصرفا بعد حين ، وفي نفس الفتى من الصوت ومما قرأ شيء كثير !

الفصل الخامس

أُستاذي يدعو عليَّ بالشقاء !

.. وكانت حياة الجامعة في أول عهد المصريين بها عيداً متصلاً يحيونه اذا اقبل المساء من كل يوم ، حين يزدحمون على غرفات الدرس على اختلاف منازلهم من الفقر والغنى ، وعلى اختلاف حظوظهم من الثقافة ، وعلى اختلاف ازيائهم أيضاً . فكان منهم الغنيّ المترف والفقير الذي لا يجد ما ينفق ، وكان منهم القاضي والطبيب والطالب والموظف والمجاور في الازهر الشريف .

وكان منهم غير أولئك قوم لم يأخذوا من العلم الا بأيسر أسبابه ، ولكنهم كانوا يختلفون الى هذه الدروس والمحاضرات ليسيروا ويسمعوا ويمتّعوا أنفسهم أن أتيح لهم المتاع . وقد جعلت غرفات الجامعة تضيق بهؤلاء المختلفين اليها والمزدحمين عليها ، وعجز الاساتذة عن أن يُسمعوا هذه الاعداد الضخمة التي كانت تكتظ بها الغرفات . فقرر بعضهم أن يلقي محاضرته مرتين ، ولم ير الطلاب بهذا بأساً . كانوا يستبقون ليسمعوا الاستاذ في محاضرته الاولى . فمن حيل بينه وبين ذلك انتظر المحاضرة الثانية . وكانوا ينتظرون في أبهاء الجامعة وحديقتها . وكان أهل السعة منهم يذهبون الى

قهوة كوبري قصر النيل القريبة ، فيشربون أو يطعمون ، حتى اذا قرب موعد المحاضرة أسرعوا اليها مشغوفين بها الى اقصى غايات الشغف. واضطرت الجامعة الى أن تنظم دخول غرفات الدرس ، فلا تأذن به الا لمن قدموا بطاقات الانتساب ، وصدّت بذلك عدداً غير قليل من الذين كانوا يسعون الى هذه الدروس كما كانوا يسعون الى المحاضرات العامة.

وأقبل الفتى ذات مساء بصحبة غلامه الاسود ، فلما بلغ الغرفة أظهرَ بطاقته وقد كان بها ضنيناً وعليها حريصاً. وقيل له تستطيع أنت أن تدخل ، فأما غلامك هذا فلا حق له في الدخول.

وأظهر الفتى شيئاً من ضيق ، ولكن صاحب الباب لم يحفل بضيقه ولا بانكاره ولا بتوسل من كان حوله من الطلاب ولا بحاجته الى أن يصحبه هذا الغلام حتى يجلسه في مكانه ثم يرجع أدراجه فينتظر من وراء الباب حتى ينقضي الدرس.

واضطر الفتى الى أن يفزع الى السكرتير العام أحمد زكي بك شاكياً ، وصحبه بعض الطلاب الساخطين على جهل صاحب الباب وعنفه وغلظة ذوقه ، وأدخل الفتى وأصحابه على السكرتير العام وقصّوا عليه قصتهم ، ولكنهم لم يجدوا عنده شيئاً وانما قال لهم في هدوء :

ـ النظام هو النظام.

وهمّ بعض الطلاب أن يجادله في ذلك فقال له متجهماً :

– وماذا نصنع وقد أراد الله لصاحبك الا يشهد هذه المحاضرات ؟

وانصرف أولئك النفر من الطلاب ساخطين على السكرتير العام سخطاً أشد وأعظم من سخطهم على صاحب الباب . وقالوا للفتى :

– لا بأس عليك ، سنصحبك نحن الى مجلسك .

وصحبوه الى مجلسه متلطفين له متحببين اليه ، وردّوه الى غلامه بعد انقضاء الدرس ، وجعلوا منذ ذلك اليوم لا يرون الفتى مقبلاً حتى يحيطوا به من قريب ، فاذا بلغ باب الغرفة أخذ أحدهم بيده وصحبه الى مجلسه ثم ردّه الى غلامه بعد ذلك . ولو اطاع الفتى نفسه في ذلك المساء لانصرف عن الجامعة ولحرم على نفسه الاختلاف الى دروسها .

ولكن الجامعة كانت أحب اليه وآثر عنده من كبريائه تلك السخيفة .

وهو على ذلك لم ينم ليلته تلك وانما أنفقها مسهداً محزوناً يذكر كيف لقي مثل هذه القسوة حين أراد أن ينتسب الى الازهر في آخر الصبا وأول الشباب ، وحين تقدم لاداء الامتحان في حفظ القرآن . فقال له أحد ممتحنيه :

– اقرأ يا أعمى سورة الكهف !

وذكر الفتى بعد سنين قصته هذه في الجامعة وقصته تلك في

الازهر ، حين دخل غرفة الدرس لاول مرة في جامعة مونبليزه فسمع الاستاذ يقول لصاحبه :

– أيكون زميلك هذا مكفوفاً !

قال الزميل :

– نعم .

قال الاستاذ :

– فاني أراه قد دخل الغرفة دون أن يرفع قلنسوته .

وكان الفتى حديث عهد بأوروبا لم يعرف بعد أن الناس يرفعون قلانسهم حين يدخلون مكاناً مسقوفاً ، وانهم يحضرون الدروس حاسري الرؤوس .

وكذلك قضي على الفتى ان يستقبل طلبه للعلم في الازهر والجامعة المصرية والجامعة الفرنسية بكلمة عن آفته تلك تؤذي نفسه وتفرض عليه ليلة ساهرة . ثم يعرض عنها بعد ذلك لانه لم يكن يرى بدأ مما ليس منه بد . وما أكثر ما ذكر بيت أبي العلاء :

وهل يأبق الانسان من ملك ربه
فيخرج من ارض لـــه وسماء

وما أسرع ما كان الفتى ينسى هذه الكلمات المؤذية بعد أن يشتري هذا النسيان بليلة ينفقها مسهداً محزوناً . ثم يقبل بعد ذلك على ما لم يكن بد من الاقبال عليه من العلم في الازهـــر وفي الجامعة المصرية وفي جامعات فرنسا .

كان الفتى يرى حياته في الجامعة عيداً متصلاً ، كما كان يراها غيره من المصريين ، ولكنها كانت بالقياس اليه عيداً تختلف فيه ألوان اللذة والغبطة والرضى والامل . كانت تخرجه من بيئته تلك الضيقة المقلقة في الازهر ، وفي حوش عطا أو درب الجماميز الى بيئة أخرى واسعة لا حد لسعتها ، فهي كانت تتيح له أن يملأ رئتيه من الهواء الطلق حين يسعى الى الجامعة وحين يعود منها ، وأن يملأ عقله من العلم الطلق الذي لا يقيده تحرُّج الاساتذة الازهريين فيما كانوا يلقون من الدروس ، ولا يفسده الاسراف في الفنقلة والجدال حول هذا اللفظ أو ذاك ، واضاعة الوقت في الاعراب حين لا يكون بين الدرس وبين الاعراب صلة .

وكانت هذه البيئة تتيح له كذلك علماً يخلق نفسه خلقاً جديداً لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد ، وانما يذهب بسه مذاهب مختلفة في الادب وفي ألوان من التاريخ لم يكن يقدر أنه سيعرفها في يوم من الأيام . ولم ينس الفتى يوماً خاصم فيه ابن خالته الذي كان طالباً في دار العلوم ولجّ بينهما الخصام . فقال الدرعمي للأزهري :

ـ ما أنت والعلم ، انما أنت جاهل لا تعرف الا النحو والفقه لم تسمع قط درساً في تاريخ الفراعنة ! أسمعت قط اسم رمسيس أو اخناتون ؟! .

وبهت الفتى حين سمع هذين الاسمين وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ . واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها . ولكنه يرى نفسه ذات ليلة في غرفة من غرفات الجامعة

يسمع الاستاذ أحمد كمال رحمه الله يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة ويذكر رمسيس واخناتون وغيرهما من الفراعنة ، ويحاول ان يشرح للطلاب مذهبه في الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية ومنها اللغة العربية .

ويستدل على ذلك بألفاظ من اللغة المصرية القديمة يردها الى العربية مرة والى العبرية مرة والى السريانية مرة أخرى . والفتى دهش ذاهل حين يسمع كل هذا العلم ؛ وهو أعظم دهشة وذهولاً حين يلاحظ أنه يفهمه ويسيغه في غير مشقة ولا جهد .

وهو يعود إلى بيته ذلك المساء وقد ملأه الكبر والغرور ، ولا يكاد يلقى ابن خالته حتى يرفع كتفيه ساخراً منه ومن دار علومه تلك التي كان يستعلي بها عليه . وهو يسأل ابن خالته أتتعلمون اللغات السامية في دار العلوم ! فاذا أجابه بأن هذه اللغات لا تدرّس في المدرسة أخذه التيه . وذكر العبرية والسريانية ثم ذكر الهيروغليفية وحاول ان يشرح لزميله كيف كان المصريون القدماء يكتبون . وتنقلب الآية ويصبح المغلوب غالباً والغالب مغلوباً .

ويمضي العام الاول من الحياة الجامعية عيداً كله لا يحس الفتى سأماً منه أو ضيقاً به ، وانما يحس الحزن الممض حين تبدو طلائع الصيف .

وينفق الاجازة كلها مفكراً فيما سمع ومتشوقاً الى ما سيسمع في العام المقبل ، ومتسائلاً عمن يبقى من الأساتذة الذين عرفهم

ومن يدعى من أساتذة لم يعرفهم، ثم لا يلبث أن تستأثر الجامعة بعقله كله وجهده كله ، وأن تشغله عن كل شيء آخر . فقد أقبل أساتذة جدد ملكوا عليه أمره واستأثروا بهواه ، فهذا الاستاذ كارلو ناللينو المستشرق الايطالي يدرّس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الاموي. وهذا الاستاذ سنتلانا يدرّس بالعربية أيضاً وفي لهجة تونسية عذبة تاريخ الفلسفة الاسلامية وتاريخ الترجمة خاصة . وهذا الاستاذ ميلوني يدرّس باللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم . ويتحدث الى الطلاب عن أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبله في مصر . فهو يفصل تاريخ بابل وآشور ، ويذكر الكتابة المسمارية ، ويتحدث عن قوانين حامورابي ، والفتى يفهم عن هؤلاء الاساتذة كل ما يقولون، لا يجد في فهمه التواء أو عسرا . وهو لا يكره شيئاً كما يكره انتهاء الدروس ولا يتشوق الى شيء كما يتشوق الى ما سيستقبل منها .

وهذا استاذ ألماني هو الاستاذ ليتمان قد أقبل يتحدث الى الطلاب عن اللغات السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية ، ثم يأخذ في تعليمهم بعض هذه اللغات . واذا الفتى يخرج من حياته الاولى خروجاً يوشك أن يكون تاماً لولا أنه يعيش بين زملائه من الازهريين والدرعميين وطلاب مدرسة القضاء وجه النهار وشطراً من الليل .

ولكن عقله قد نأى عن بيئته هذه نأياً تاماً واتصل بأساتذته أولئك اتصالاً متيناً ، فكلهم قد عرفه وكلهم قد آثره بالحب والرفق والعطف . وكلهم قد أدناه من نفسه ودعاه الى أن يزوره

في فندقه وأحب أن يقول له ويسمع منه . ولم ينس الفتى موعداً ضربه لاستاذه سنتلانا ذات صباح ليحضر معه درساً من دروس الازهر ، وقد أقبل الاستاذ الى حيث كان ينتظره تلميذه أمـــام الرواق العباسي . وذهب مع الفتى الى درس الشيخ الأكبر الشيخ سليم البشري رحمه الله ، وكان يلقي درسه في التفسير مع الصباح بالرواق العباسي . وجلس الاستاذ والتلميذ بين الطلاب، وأخذ الشيخ يفسر آية كريمة من سورة الانعام هي قول الله عز وجل : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

وفسر الشيخ رحمه الله فأحسن التفسير وخاض في حديث الجبر والاختيار وجعل يرد على الجبريين ويدفع مقالتهم ، ويأخذ الفتى في حوار الشيخ على عادة الازهريين فيسمع الشيخ له ويرد عليه رداً لا يقنعه ، ويأبى الفتى الا اللجاج فينهره الشيخ بهذه الكلمات :

— ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . الله أكبر على العلـــم والايمان . حضرتك مسلم .

ويهم الفتى أن يجيب ، ولكن الشيخ ينهره في سخرية غاضبة قائلاً :

— اسكت يا شيخ جاتك الكلاب خلينا نقرأ .

ثم يمضي في حديثه غير حافل بالفتى ، ولكن الفتى يهم أن يتكلم ، واذا استاذه الايطالي يمس كتفه مساً متصلاً وهو يقول له هامساً

بعربيته التونسية العذبة :

ــ اسكت ، اسكت ، ليضربك !

يميل بالضاد الى الظاء ، ويرى الفتى نفسه مغرقاً في ضحك خفي لا يدري أكان مصدره سخرية الشيخ منه أم رفق الاستاذ الايطالي به واشفاقه عليه .

فاذا انتهى الدرس ذهب الفتى باستاذه الايطالي الى ادارة الازهر واستأذن له على الشيخ الاكبر ، فأذن له وتلقاه حفياً به متلطفاً له في الحديث . ثم ينظر الى الفتى فيسأله في رفق :

ــ أأنت الذي كان يجادل في الدرس ؟

قال الفتى :

ــ نعم .

قال الشيخ متضاحكاً :

ــ ما شاء الله ما شاء الله فتح الله عليك وأشقاك بتلاميذك كما يشقى بك أساتذتك !!

الفصل السادس

أساتذتي ...

ولم تكن حياة الجامعة عيداً متصلاً رائع الامتاع لمكان الاساتذة الاجانب فيها فحسب ، بل كان فيها أساتذة مصريون يضيفون الى روعتها روعة والى اشراقها اشراقاً . ولم ينس الفتى طائفة من هؤلاء الاساتذة كان لهم في حياته أبعد الأثر وأعمقه ، لانهم جددوا علمه بالحياة وشعوره بها وفهمه لقديمها وجديدها معاً ، وغيّروا نظرته الى مستقبل أيامه ، وأتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وتثبت أمام هذا العلم الكثير الذي كان يأتي به المستشرقون وكان جديراً بأن يحول هذا الفتى تحويلاً خطيراً يفنيه في العلم الاوروبي افناء ، ولكن أساتذته المصريين هؤلاء أتاحوا له أن يأوي الى ركن شديد من الثقافة الشرقية الخالصة وأتاحوا لمزاجه أن يأتلف إئتلافاً معتدلاً من علم الشرق والغرب جميعاً . وكان الاساتذة المصريون يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً ، كان منهم المطربشون والمعممون والذين سبقت العمامة الى رؤوسهم ثم انحسرت عنها وجاء مكانها الطربوش .

وكان منهم الصارم الحازم الذي لم يكن ثغره يعرف الابتسام

الا قليلا ، والمازح الباسم الذي لم يكن وجهه يعرف العبوس الا نادراً. وكان منهم ذو العلم العميق العريض الذي يبهر ويسحر ويذكي القلوب والعقول ، وذو العلم الضحل والثقافة الرقيقة الذي يخلب باللفظ ثم لا يكون وراء لفظه الخلاب شيء ذو بال .

وكان منهم من يخلب بلفظه العذب ودعابته الساحرة وعلمه الغزير . كان منهم اسماعيل رأفت ، رحمه الله ، ذلك الذي لم يكن يعرف من طلابه الا انهم يحملون رؤوساً يجب ان يصب العلم فيها صبّاً . فكان يقبل عليهم عابساً وينصرف عنهم عابساً لا يلقي الى احدهم كلمة وانما يأخذ مجلسه ويبسط أوراقه ويأخذ في القراءة حتّى تنتهي ساعة الدرس لا يقطعها الا حين يفسّر ما قد يحتاج الى التفسير ، وحين يلقي على الطلاب هذا السؤال الذي تعود أن يلقيه في دار العلوم – وقد كان استاذاً فيها :

– فاهمين يا مشايخ ؟

وقد سمع الفتى منه وصف افريقيا على اختلاف أقطارها وعلى اختلاف ما يكون لهذا الوصف من صور يتصل بعضها بطبيعة الاقليم ، ويتصل بعضها الآخر بالسياسة والاقتصاد ونظم الحياة الاجتماعية واجناس السكان .

وقد سمع الفتى فيما بعد دروساً مختلفة في الجغرافيا من أساتذة ممتازين في جامعات فرنسا ، فلم يحس لاحدهم فضلاً على أستاذه ذلك المصري العظيم .

وكان من هؤلاء الاساتذة حفني ناصف رحمه الله ، وكان إبتساماً كله وفكاهة كله وتواضعاً كله ، على غزارة في العلم واصالة في الفقه بما كان يدرّس من الادب العربي القديم . وكان الطلاب يكلفون به أشد الكلف ، ويطمعون فيه أعظم الطمع ، وكان بعضهم ربما انصرف عن دروسه ليجلس اليه في قهوة كوبري قصر النيل التي كان يجلس فيها ساعة قبل الدرس من يوم الخميس من كل اسبوع .

وكان الطلاب يأبون عليه ان يختم دروسه في آخر العام دون أن يزيدهم على المقرر درسين أو دروساً . وكان الفتى لسانهم حين كانوا يرغبون اليه في ذلك . وكان الفتى يطلب اليه المزيد من الدرس نثراً حيناً وشعراً حيناً مستعطفاً مرة ومنذراً مرة اخرى . وكان رحمه الله قد شرح كتاب « الكافي في العروض » حين كان طالباً في الازهر . وكان يخجل من هذا الشرح ويكره أشد الكره أن ينسب اليه . فكان الفتى يقسم له في آخر العام لئن لم يضف الى المقرر دروساً لينسبنّ اليه شرح الكافي في مقال ينشره في الجريدة . وكان رحمه الله يستجيب فيضيف درسين وربما أضاف أربعة دروس .

وكان أروع صورة عرفها الفتى لتواضع الاستاذ ، لم يتكلف قط ذلك الوقار المصنوع الذي يتكلفه بعض الاساتذة حين يرقون الى مجلسهم في غرفة الدرس ، وانما كان يخلط نفسه بطلابه كأنه واحد منهم لولا أنه كان يكبر أكثرهم سناً — فقد كان بين طلابه من تقدمت به السن كثيراً — .

وقرأ الفتى ذات يوم في الجريدة حديثاً لاحد القراء يطرح فيه موضوعاً لمسابقة شعرية ويجعل لهذه المسابقة جائزة هي كتاب « الامالي » لابي علي القالي ، ويحكم بين المستبقين الاستاذ حفني ناصف وتلميذه ذاك الفتى . وأنكر صاحبنا أن يقرن الى استاذه وأحس شيئاً من غرور . ولكن يجلس ذات مساء في بيته بدرب الجماميز مع جماعة من رفاقه يأخذون في بعض ما كانوا يخوضون فيه من حديث ، وانهم لفي ذلك وقد تقدم بهم الليل واذا الباب يطرق عليهم . فاذا ادخل الطارىء وجم الفتى ودهش الرفاق . فلم يكن الطارق الا الاستاذ حفني بك ناصف ، قد جمع شعر المستبقين في الجريدة وسعى به الى تلميذه في بيته ذاك في الطبقة السادسة من تلك الدار التي كان يسكنها، وقال له في رفق عذب :

— أتيت لاخلو اليك ساعة نفرغ فيها من قضية هؤلاء المستبقين .

وكان من بين الاساتذة المصريين الشيخ محمد الخضري رحمه الله . كان يدرس التاريخ الاسلامي، وقد سحر الفتى بعذوبة صوته وحسن القائه وصفاء لهجته، وأحب دروسه في السيرة وفي تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم وفي تاريخ الفتن ودولة بني أمية والصدر الاول من دولة العباسيين . وكان يظن ان ليس فوق علم الاستاذ علم، ولكنه لم يكد يسمع دروس التاريخ في أوروبا حتى عرف أن الاستاذ رحمه الله كان ينقل دروسه نقلاً من كتب القدماء في غير نقد ولا تعمق وفي أيسر ما كان يمكن من فقه التـــاريخ .

وكان من الاساتذة المصريين استاذان أحبهما الفتى أشد الحب وعبث بهما أشد العبث واستغل سذاجتهما ووداعتهما أشنع الاستغلال. كان احدهما الشيخ محمد المهدي رحمه الله، اقبل يدرّس الادب العربي بعد حفني ناصف فكان الفرق بين الاستاذين خطيراً بعيد المدى. كان احدهما عميق العلم وكان الآخر ابعد ما يكون عن العمق. كان احدهما سمحاً لا يتكلف ولا يتصنع، وكان الآخر متكلفاً متفاصحاً لا يتكلم الا العربية الفصحى مغرباً فيها يملأ بها فمه وربما أضحك منها طلابه، وكان يقدم السيجارة الى الفتى، فاذا همّ الفتى أن يشعلها قال له: «انتظر انتظر يا بني حتى ألفّها لك... !» ولم يكد الطلاب يسمعون هذه الكلمة حتى يغرقوا في ضحك لا يستخفون به. وكان الاستاذ يضحك معهم ويغرق في الضحك!

وكان الفتى جريئاً عليه يجادله في الدرس فيرهقه من أمره عسرا، وربما أضحك منه الطلاب لانه كان لا يحقق ما يروي من الشعر، ولان الفتى كان يردّه الى الصواب. فيظهر عليه الاضطراب وقد حاول ان يصدّه عن هذا الجدال ويصرف أترابه عن هذه الجراءة فدعاهم ذات يوم الى الغداء في داره. وقدم اليهم من طيبات الطعام ما لم يكن لأكثرهم به عهد، وظن أنه قد ردّهم الى شيء من الحياء. ولكنه لم يلبث أن تبين أنه لم يزد على أن أطمعهم في نفسه ورغّبهم في طعامه وزادهم عليه اجتراء. وكانت سيرة الفتى مع هذا الاستاذ الكريم مسرفة على الفتى وعلى الاستاذ جميعاً حتى أوشكت أن تترك في حياة الفتى آثاراً منكرة.

وضع الفتى رسالته التي تقدم بها للدكتوراه ، ونقد فيها أستاذه مصرحاً باسمه ، وكان الاستاذ من الممتحنين ، فضاق بهذا النقد ، وأبى أثناء المداولة ان يمنح الفتى درجة الامتياز ، ولم يكن سبيل الى هذه الدرجة الا اذا أجمع عليها الممتحنون . فاضطرت اللجنة الى أن تنزل بالفتى من درجة فائق الى جيد جداً .

وسافر الفتى الى أوروبا فأقام بها عاماً ثم عاد منها في خطوب سيأتي حديثها .

وفي أثناء اقامته في مصر ذهب الى الجامعة واستمع لدرس الاستاذ الشيخ مهدي ، ثم خرج فكتب عن هذا الدرس مقالاً في مجلة « السفور » نقد الاستاذ فيه نقداً مراً ممضاً . وأسرع الاستاذ فكتب الى مجلس الجامعة شاكياً من هذا التلميذ المتمرد ، طالباً الغاء بعثته عقاباً له على هذا التمرد . وكان ان امر المجلس بالتحقيق مع الفتى وكلف ثروت باشا وعلوي باشا رحمهما الله والاستاذ أحمد لطفي السيد ، سؤال الفتى عن هذا المقال ، فلم ينكر من مقاله شيئاً . ولم ير لاحد الحق في أن يعاقبه على نقد حر بريء لم يرد به الا الخير ، ولم ير لاحد حقاً في أن يسأله في هـذا النقد ، وتضاحك المحققون وكلف مجلس الجامعة الاستاذ احمد لطفي السيد أن يصلح بين الاستاذ الغاضب والتلميذ المتمرد ، فحضر الاستاذ لطفي السيد ذات مساء درس الشيخ ثم دعاه ودعا التلميذ الى العشاء ، وفي العشاء كان الصلح وعاد الفتى بعد ذلك الى أوروبا موفوراً .

وكان الاستاذ الآخر الذي ملأ الجامعة فكاهة ودعابة وملأ الطلاب عبثاً به واجتراء عليه وملأ بطون الطلاب من طعامه هو الشيخ طنطاوي جوهري رحمه الله .

كان يدرّس الفلسفة الاسلامية بعد الاستاذ محمد سلطان وبعد الاستاذ ستلانا خاصة . وكان يتكلم كثيراً ولا يقول شيئاً، وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والاشراق اكثر الكلمات جرياناً على لسانه منذ يبدأ الدرس الى أن يتمه . وكان لا ينطق بكلمة منها الا مدّ ألفها فأسرف في المد وربما أخذه شيء من ذهول وهو يمدّ هذه الالف فيغرق الطلاب في ضحك يخافت به بعضهم ويجهر به بعضهم الآخر ؛ ويفيق الاستاذ من ذهوله على هذا الضحك فيلوم الطلاب لا على أنهم يضحكون بل على أنهم لا يشاركونه في الاعجاب بجمال الطبيعة وجلال الكون وبهاء القمر حين يرسل ضوءه المشرق على صفحة النيل ويمد ماء النيل فيسرف في مدّها ويأخذه ذهول يرد الطلاب الى ضحك متصل .

وفي ذات يوم ختم الاستاذ دروس العام وقرر الطلبة قبـــل الدرس أن يكون الفتى لسانهم في شكر الاستاذ على دروسه القيمة، واشترطوا عليه أن يشكر الاستاذ بكلام غير مفهوم ، واشترط عليه الاستاذ ابراهيم مصطفى ألا تخلو جملة من حديث الشكر هذا الذي يجب ان يكون طويلا من احدى هذه الكلمات الست : الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والاشراق .

وقبل الفتى هذه الشروط كلها ، فخطب وأجاد ولكنه لم يقل شيئاً ، ورضي الاستاذ كل الرضى وقال للفتى : لا يكافيء هذه الخطبة الرائعة الا ديك رومي ، ولكنك لن تأكله وحدك وانما يشاركك فيه زملاؤك جميعاً . فاذا كان يوم الجمعة فأنتم تعرفون أين أقيم !

ولم يكن الاساتذة المصريون وحدهم هم الذين يملأون الجامعة فكاهة ودعابة ويتعرضون لعبث الطلاب وجراءتهم الماجنة ، وانما كان الاساتذة الاجانب مصدراً من مصادر الفكاهة وموضوعاً من موضوعات العبث . كانت لهجتهم العربية تملأ افواه الطلاب بالضحك ، وكان منهم الذين يلوون ألسنتهم بالعربية يقلدون هذا الاستاذ او ذاك من أساتذتهم الايطاليين أو الالمانيين . ولم ينس الفتى يوماً قرر فيه الطلاب أن يضربوا عن درس الاستاذ نالينو الايطالي ، لان ايطاليا اعلنت الحرب على تركيا وأرسلت سفنها غازية لطرابلس ، فأزمع الطلاب أن يجتمعوا في غرفة الدرس ، حتى اذا أقبل الاستاذ وارتقى الى مجلسه خرجوا من الغرفة وتركوه فيها وحيداً . وقد أتم الطلبة ما قرروا فتركوا الاستاذ وحيداً في غرفة الدرس ، ووقفوا أمام الغرفة ينتظرون ما يكون من أمره ؛ ولبث الاستاذ في الغرفة دقائق ثم خرج فأقبل على تلاميذه وقال لهم في لهجة عربية صحيحة فصيحة يلتوي بها لسانه بعض الشيء :

— مثلكم مثل الرجل الذي أراد أن يغيظ امرأته فخصى نفسه ! !

وكان السهم صائباً ، وكان أثره لاذعاً ممضاً ؛ ومنذ ذلك اليوم

لم يفكر طلاب الجامعة في الاضراب ، ومنذ ذلك اليوم استقر في نفس الفتى بغض شديد لاضراب الطلاب عن الدروس مهما تكن الظروف .

وكانت دروس الآداب الانجليزية والفرنسية تلقى في الجماعة ويشهدها الذين يحسنون هاتين اللغتين من الطلاب ، ويتجنبها الفتى لانه لم يكن يعرف لغة أجنبية. ولكن الجامعة نظمت ذات يوم وفرضت فيها الامتحانات وفرض فيها العلم بلغة أجنبية من هاتين اللغتين . وأقبل الفتى ذات يوم مع زميله المرصفي — وللمرصفي حديث طويل سيأتي في ابانه — فاتفقا على أن يسمعا درس الادب الفرنسي ، ليعرفا كيف تكون هذه اللغة، فدخلا غرفة الدرس ولبثا فيها ساعة كاملة لم يفهما فيها حرفاً مما سمعا ، ولم يميزا منه الا لفظاً واحداً هو لافونتين الذي كان يتردد كثيراً جداً على لسان الاستاذ .

ثم انصرفا بعد ذلك ولم يحفظا من أمر هذه الساعة الا أنهما سمياها سجن لافونتين . وقد كان لهذه الساعة مع ذلك في حياتهما أثر أي أثر . فأما المرصفي فعدل عن الجامعة وأعرض عنها وعن دروسها وامتحاناتها واتخذها مكاناً يلقى فيه الصديق ويتفكه فيه بالعبث من بعض الاساتذة .

وأما الفتى فأزمع أن يتعلم الفرنسية حتى لا يعود الى سجن لافونتين ، وكانت له في تعلم هذه اللغة خطوب أي خطوب .

الفصل السابع

كيف تعلّمت الفرنسية!

كان أول عهد الفتى بدرس اللغة الفرنسية أن حدّثه بعض صديقه من الازهريين بأن مدرسة مسائية أنشئت في مكان قريب من الازهر تدرّس فيها هذه اللغة لمن يريد أن يتعلمها من المجاورين .

وكان للشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله يد في انشاء هذه المدرسة لم يحققها الفتى تحقيقاً واضحاً ، ولكنه ذهب الى المدرسة فيمن ذهب اليها من الطلاب وسمع الدرس الاول من دروسها . ألقاه كهل مصري كان يحسن أن يلوي لسانه في النطق بالحروف ، وكان الفتى يبهره هذا النطق . ولكنه لم يفهم من هذا الدرس شيئاً، فقد كان الاستاذ يرسم الحروف على اللوحة وينطق بها ويأخذ الطلاب بأن ينطقوا بهذه الحروف كما سمعوها منه ، وبأن ينظروا اليها مرسومة وينقلوها فيما أمامهم من الاوراق . وظل الفتى واجماً لا يرى الحروف ولا يرسمها . ولم يسأله الاستاذ أن ينطق بها وانما كان يسأل من عن يمينه ومن عن شماله ويمرّ به هو دون أن يلوي عليه .

وضاق الفتى بذلك أشد الضيق، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً، ثم تفرق الطلاب وهمّ الفتى أن ينصرف . ولكن يداً توضع على

كتفه وصوتاً يطلب منه الانتظار ، واذا هو الاستاذ قد استوقف الفتى ، حتى اذا خلا اليه قال له :

— ليس لك ارب في حضور هذه الدروس ، ولكني أرى فيك حرصاً على تعلم هذه اللغة وأحب أن أعينك على ما تريد ، فالقني ان شئت في قهوة كوبري قصر النيل نتحدث في هـــذا الموضوع .

وضرب له موعداً لهذا اللقاء، ولم يكادا يلتقيان حتى تعارفا . واذا بينهما صلة قديمة . فقد كان أبو هذا الاستاذ قاضياً شرعياً في المدينة التي نشأ فيها الفتى وعليه قرأ الفتى ألفية ابن مالك . كان يختلف اليه في المحكمة ضحى كل يوم ، ويقرأ عليه باباً من أبواب الألفية . وقد اتصلت المودة بين الاستاذ الكهل وتلميذه الفتى ، ولكن دروس هذا الاستاذ لم تغن عن التلميذ شيئاً . فقد كان يحب كتّاباً وشعراء من الفرنسيين، فاذا خلا الى الفتى قرأ عليه من آثار هؤلاء الكتاب والشعراء وترجم له بعض ما يقرأ فيزيد شوق الفتى الى العلم بلغة هؤلاء الكتاب والشعراء لروعة ما كان ينقل اليه من آثارهم . وقد سمع الفتى من أستاذه أسماء كانت تسحره وتبهره وتملك عليه أمره كله . سمع اسم لامارتين والفريد دي موسيه والفريد دي فني وشاتوبريان فكان موقع هذه الأسماء غريباً ، وكان ما ينقل اليه من كلامهم أشد غرابة من أسمائهم يُبعد الفتى عن الادب العربي وعن الشعر القديم خاصة ، ويدفعه الى عالم آخر مجهول لا يحقق الفتى منه شيئاً ولكنه يهيم بالاضطراب

فيه كل الهيام. وقد اضطر آخر الامر الى أن يبحث عن معلم يلقنه أوليات هذه اللغة تلقيناً منظماً منتجاً، وما زال يبحث عنه حتى دل عليه.

فأقبل على دروسه كل يوم من الساعة الثانية الى منتصف الخامسة، واستبقى مع ذلك مودة أستاذه ذاك. فكان يلقى أستاذه النظامي كل يوم في موعده المحدد فيتعلم منه الأوليات ويلقى أستاذه الآخر مرتين في الاسبوع اذا أقبل الليل ليسمع منه نثراً وشعراً ينقل اليه بعض معانيهما.

وكان الاستاذ النظامي رجلاً غريب الاطوار حقاً. كان شيخاً قد نيّف على السبعين وقد حطمته السنون، وكان البانياً، وكان قذراً تنبو عنه العيون. وكان معدماً لا يجد ما يقوته، وكان يصيب غداءه مع الفتى كل يوم ثم لا يأخذ منه أجراً لدروسه. وكان سريع التعب لا يكاد يتحدث الى الفتى دقائق حتى يدركه الاعياء فيغفي لحظة ثم يفيق ليأخذ فيما كان فيه ثم يعود الى الاغفاء ثم يعود بعد ذلك الى الافاقة.

وكذلك كان الفتى يختطف دروسه اختطافاً بين يقظة الاستاذ ونومه، وربما أحس الاستاذ شدة الحرّ اذا أقبل الصيف وأراد أن يتبرد فوقف الدرس وذهب الى الحمام فصبّ على نفسه من ماء الدش ما شاء الله أن يصب. ثم عاد الى تلميذه وقد أحدث شيئاً من نشاط، ولكنه لا يكاد يمضي في درسه حتى تأخذه سنته تلك، فيضطر التلميذ الى الانتظار به حتى يفيق.

على أن هذا الاستاذ لم يلبث أن ضاق به أخو الفتى أشد الضيق. كان يأتي اذا دنت الساعة الثانية وينصرف اذا انتصفت الساعة الخامسة، ويترك في البيت من قذارته آثاراً غلاظاً، بعضها حي يؤذي، وبعضها ميت يمض، حتى شكا الخادم وضاق أخو الفتى بما كان يرى، وبما كان يسمع. وصرف الاستاذ صرفاً رقيقاً.

والتمس صاحبنا لنفسه أستاذاً آخر وجعل يتنقل بين معلم ومعلم ويجد في هذا التنقل مشقة أي مشقة، ومتاعاً أي متاع. تأتي المشقة من أجر الدروس الذي لم يكن له بد من أن يؤديه الى معلميه، ويأتي المتاع من اختلاف هؤلاء المعلمين، وتباين أطوارهم وخصائصهم حين كانوا يتحدثون اليه، ويلقون علمهم عليه. حتى لقي الفتى ذات يوم في الجامعة فتى كان قد ظفر بالشهادة الثانوية وتعلم في مدرسة الفرير، فكان متقناً للفرنسية، ولم يكد يتحدث اليه حتى ذكر صباه كله، فقد كان هذا الفتى ابن ملاحظ الطريق الزراعية في مدينته، وكان يختلف مع أخيه الى الكتاب الذي حفظ الفتى فيه القرآن. فقد لقي الفتى اذاً رفيق صباه، ويسر له تعلم اللغة الفرنسية في غير مشقة ولا عناء، وأي شيء أيسر من أن يتعلم الفرنسية لا يدفع على تعلمها أجراً وانما يعلم رفيقه بعض قواعد النحو والصرف؟!

وبفضل هذا الرفيق محمود سليمان رحمه الله خطا الفتى في درس الفرنسية خطوات بعيدة، علمه رفيقه كما تعلم هو في

المدرسة . قرأ معه الكتب الاولى وما زال يتدرج به من كتاب الى كتاب حتى رأى نفسه ذات يوم يقرأ مع رفيقه قصة كانديد لفولتير . يتعثر في فهمها تعثراً شديداً متصلاً ولكنه يفهم منها شيئاً . ورأى الفتى نفسه يختلف الى دروس الادب الفرنسي فتفوته أشيـــاء ويصيب أشياء ، والاستاذ يعطف عليه ويرفق به ، ورفيقه يعينه على ما فهم ما يفوته ، واذا هو يتقدم في الدرس تقدماً حسناً ، ويشعر أن أمر اللغة الفرنسية قد أصبح يسيراً ، فليس له بد من أن يحسنها وهو قادر على أن يحسنها ان مضت أموره على ما يحب .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجامعة بالقياس اليه وسيلة بعد أن كانت غاية ، فقد ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش في روعه فكرة السفر الى اوروبا ، والى فرنسا خاصة ، فما له لا يفكر في هذا السفر وما يمنعه أن يبتغي اليه الوسيلة . والغريب أن هذه الفكرة مازجت نفسه وأصبحت جزءاً من حياته ، وجعل ينظر اليها لا على أنها حلم يداعبه نائماً أو يقظان ، بل على أنهـــا حقيقة يجب أن تكون . وأغرب من هذا أن الفتى جعل يتحدث بسفره الى أوروبا كما يتحدث الانسان عن أمر قد صحت عزيمته عليه ، وقد تهيأت له أسبابه . وكان يتحدث الى اخوته والى أخواته اذا أقبل الصيف بسفره الى أوروبا قريباً . وكان يغيظ أخواته بأنه سيقيم في أوروبا أعواماً ثم يعود منها وقد اختار لنفسه زوجاً فرنسية متعلمة مثقفة تحيا حياة راقية ممتازة ، ليست جاهلة مثلهن ، ولا غافلة مثلهن ، ولا غارقة في الحياة الخشنة الغليظة مثلهن . وكان اخواته

يتضاحكن حين يسمعن منه هذا الحديث وربما أضحكن به أم الفتى وأباه .

وكان الفتى يقول لهن : « اضحكن اليوم فسترين غداً ! »

وفي ذات يوم قرأ صاحبنا في الصحف اعلاناً من الجامعة تطلب فيه الى الشباب ان يستبقوا الى بعثتين من بعثاتها في فرنسا . احداهما لدرس التاريخ ، والاخرى لدرس الجغرافيا . ولم يكد يفرغ من قراءة هذا الاعلان حتى استقر في نفسه أنه صاحب احدى هاتين البعثتين ، وانه سيعبر البحر الى باريس لدرس التاريخ في السوربون . واذا هو يكتب الى رئيس الجامعة الامير أحمد فؤاد هذا الكتاب :

« دولتلو افندم رئيس الجامعة المصرية ..

« أرفع الى دولتكم والى مجلس ادارة الجامعة ، أني قرأت في الصحف اعلان الجامعة ، أنها سترسل طالبين الى أوروبا لدرس التاريخ وتقويم البلدان . وأنا شديد الحرص على أن أكون أحد هذين الطالبين ، وعلى أن توجهني الجامعة الى فرنسا لدرس التاريخ . واعتقادي أن الجامعة انما تجعل مقياسها في اختيار الطلبة الكفاءة الحقيقية . وعلى ذلك أتشرف بأن أؤكد لدولتكم ولمجلس الادارة ان الجامعة قد جعلتني ، فيما أعتقد ، كفئاً لخدمتها بما علمتني من علم نافع ، وما أدبتني به من أدب مفيد .

« وأنا على يقين أن الجامعة ستستفيد مني كثيراً ان قبلتني خادماً لها ، وهي لن تجني مني الا ثمر غرسها الطيب في مصر وفي أوروبا .

« نعم ، ان الشروط التي تشترّطها الجامعة في طلبة الارساليات ينقصني بعضها ، فاني لم أحصل على الشهادة الثانوية ، كما أني مكفوف البصر . ولكني أعتقد أن نقصان هذين الشرطين لا يضرّني شيئاً . فأما الشرط الاول فلا يضرني نقصانه ، لان ما سمعته في الجامعة من العلم وما أديته فيها من الامتحان ، وما أحرزته من الدرجات العظمى في جميع العلوم التي امتحنت فيها ، وهي علوم الجامعة كلها الا الآداب الاجنبية ، وما تشرفت به في اثر ذلك من رضا مجلس الادارة عني ، وثناء الاساتذة غائبهم وحاضرهم على كل ذلك ، يقوم مقام الشهادة الثانوية ويزيد عليها من غير شك ولا ريب ، ولا سيما وأنا شارع في تعلّم الفرنسية حتى اني لأفهم بها غير قليل ، وقد أتممت منها مقداراً يمكنني من دخول الجامعة في فرنسا بعد أشهر أقضيها هناك ، ويضاف الى ذلك اني اتممت في الجامعة درس تاريخ الشرق القديم ونلت فيه الدرجة العظمى ، ودرس تاريخ الاسلام ، ونلت فيه أعظم درجة نالها طالب في الجامعة ليس بيني وبين النهاية الا درجة واحدة ، وأتممت درس اللغات القديمة السامية ونلت فيها الدرجة العظمى أيضاً . وتلك مزية لم تجتمع لاحد من الطلبة المصريين في مصر . ولست أريد أن أتمدّح بهذا ، وانما أريد أن أتحدث بفضل الجامعة عليّ ، وان هذا الفضل يجعلني أكثر الناس كفاءة لدرس التاريخ وخدمة الجامعة فيه .

« أما الشرط الثاني وهو فقدان البصر فليس يمنعني أن أسمع دروس الاساتذة ولا أن أؤديها ، أي ليس يمنعني أن أكون طالباً وأستاذاً ، واذا كان قضاء الله قد قضى عليّ هذه البلية فقد عوّضني منها خيراً . وأنا أجلّ المجلس عن أن يتخذ بلية كهذه عقبة تحول بيني وبين ما أريد من الخير لنفسي وللجامعة .

« حقاً ان الجامعة اذا قبلت هذا الطلب ستضطر الى أن تزيد في نفقتي ما يمكنني من الاستعانة بمن يكون معي في فرنسا ، ولعمري لئن فعلت ذلك ، فليس بضائر لها ، بل هو يدل على كرم نفس وعلى تضحية في معونة من يحتاج الى الاعانة والتعضيد .. على أني مستعد لان تسترد الجامعة مني بعد عودتي من أوروبا ما أنفقته عليّ زيادة على النفقات العادية تأخذه من مرتبي أقساطاً . وما أظن الجامعة تكره أن تتفضل عليّ بهذا القرض الجميل .

« لذلك كله أرفع الى دولتكم والى مجلس الادارة هذا الطلب راجياً أن تتفضلوا بقبوله . ولكم الشكر الجميل والثناء المحمود .

طه حسين

طالب بالجامعة المصرية »

وعرض هذا الكتاب على مجلس الجامعة فلم يلق منه الا الرفض ، لان صاحبه لا يحمل الشهادة الثانوية ، بحكم آفته التي امتحن بها . ولان إرساله الى أوروبا سيكلف الجامعة نفقات اضافية تعين الفتى على أن يكون له رفيق يعينه على الاختلاف الى الجامعة وقراءة ما يحتاج الى قراءته من الكتب . ولكن هذا الرفض لم يفلّ عزم الفتى

ولم يثبط همته . واذا هو يكتب الى رئيس الجامعة هذا الكتاب الجديد :

« دولتلو افندم رئيس الجامعة المصرية .

أرفع الى دولتكم والى مجلس الادارة أني كنت قد طلبت الى الجامعة الاذن لي في أن اكون من ارساليتها في أوروبا . فرفض المجلس هذا الطلب في جلسته الاخيرة لانه يخالف قانون الارسالية . واني لاعلم حق العلم قبل أن أرفع طلبي ذلك الى دولتكم والى المجلس انه يخالف القانون . ولكني طلبت الاستثناء ورغبت فيه لما بيّنت في ذلك الطلب من رغبتي في العلم وحرصي على خدمة الجامعة ولما اكتسبت بفضل الجامعة عليّ من المزايا التي تؤهلني لبلوغ هذه المنزلة ؛ ولست أنكر على المجلس رفضه لهذا الطلب فانه لم ينفذ الا القانون وما كان تنفيذ القانون بالامر الذي ينكر او يعاب ، غير اني اعيد هذا الطلب الى المجلس راغباً في أن يعيد النظر فيه ، فانه لم يرفض ذلك الطلب بالماضي الا لامرين مجتمعين أو كلّ منهما على حدة .

« الاول — اني لا أحمل الشهادة الثانوية لاني مكفوف البصر ، ولكن المجلس أجلّ عندي من أن يحسب لهذا الامر حساباً ، فانه لا يمنعني ان اكون طالباً واستاذاً بدليل ان المجلس نفسه يقبلني طالباً منتسباً في الجامعة أسمع دروسها واجوز امتحاناتها وانال شهادتها . واذا كانت الطبيعة قد حالت بيني وبين كثير من نعيم الحياة ، فما ينبغي أن تكون الجامعة عوناً للطبيعة على حرماني لذة الانتفاع بالعلم والنفع به ، مع انها تعلم اني على ذلك أقدر ما أكون .

« الثاني احتياج الجامعة اذا أرسلتني الى ان تنفق عليّ أكثر من نفقتها العادية على طلابها في أوروبا . وانا أعترف بأن للجامعة الحق في تقدير هذا المانع المالي ومراعاته وان لها ألا تشتري خدمتي بهذا الثمن الغالي لاني لا استحقه ولانها لا تجده .

« ولذلك أتشرف بأن ارفع الى المجلس من جديد اني لا أطلب من النفقات الا المقدار الذي يطلبه غيري من الطلاب وعلى ان أقوم بما احتاج اليه مما يزيد على هذا المقدار ، فلعل ذلك كله يشرفني بقبول المجلس طلبي هذا مقدراً حرصي على طلب العلم في غير مصر مع ما احتمله في سبيل ذلك من الآلام والعناء ، فان هذا أدعى الى قبول الطلب وتقريره مع الشكر الجميل والثناء الجزيل .

٥ مارس سنة ١٩١٣ طه حسين »

وكأن المجلس قد ضاق بهذا الكتاب الجديد فرفضه كما رفض الكتاب الاول . وسبّب الرفض بأن الفتى لا يعرف اللغة الفرنسية حقّ معرفتها .

وأراد المجلس أن يهوّن هذا الرفض على الفتى فصاغه في صيغة التأجيل حتى يحسن هذه اللغة مطمئناً الى أنه لن يجد الى احسانها سبيلا ، تحول بينه وبين ذلك آفته تلك ، ويعينها على ذلك فقر الفتى وإصفار يده من المال . فلم يزدد الفتى الا عزيمة وتصميما ، وكتب الى رئيس الجامعة بعد شهور هذا الكتاب الثالث :

« صاحب السعادة رئيس الجامعة المصرية ..

أعود الآن فأرفع الى سعادتكم والى مجلس ادارة الجامعة

رغبتي في السفر الى أوروبا لدرس العلوم الفلسفية أو التاريخية موفداً من قبل الجامعة ، بعد أن رفضت هـــذا الطلب في السنة الماضية . فقرر مجلس الادارة تأجيل سفري الى هذه السنة ريثما أقوى في اللغة الفرنسية . واذا كنت قد وصلت من هذه اللغة الى مقدار لا بأس به وسأتقدم في هذه السنة لامتحان شهادة العالمية في قسم الآداب .

« فأنا أرجو أن يتفضل مجلس الادارة فيوفي لي وعده الكريم مع الشكر والثناء .

طه حسين

١٩ يناير سنة ١٩١٤ . »

واضطر مجلس الجامعة الى نوع من التحدي فقرر النظر في ايفاد الفتى الى أوروبا اذا ظفر بشهادة العالمية (الدكتوراه) .

ولم يكن أحب اليه من هذا التحدي ، فأقبل على العناية بالدرس واعداد الرسالة للامتحان وتقدم لهذا الامتحان وظفر باجازة الدكتوراه ، ولهذا كله حديث يطول .

الفَصْلُ الثَامِن

ثلاثُ تجاربْ ...

واتصلت أسباب الفتى بثلاثة من الصديق غير صاحبيه الزناتي والزيات . كان لكل واحد منهم أثر أيّ أثر في حياته الجامعية . وكان لاثنين منهم أثر بعيد عميق في حياته بعد أن جاوز طور الطلب وأصبح أستاذاً ومؤلفاً . عرف أحد هؤلاء الثلاثة في الجامعة ، كان يختلف مثله الى دروسها ولم يكن أزهري النشأة ، وانما كان من فئة المطربشين . كان متوقد الذهن ، نافذ الذكاء ، قويّ الذاكرة ، محبّاً للدرس . وكان الى ذلك حلو الروح رقيق الصوت ، ساحر الحديث . وقد ألفه الفتى في دروس اللغات السامية ، وبفضله استطاع أن يفرغ لهذه الدروس ، ويحسن العناية بها ويحفظ كثيراً من النصوص السريانية عن ظهر قلب . كان رفاقه الازهريون ينفرون من هذه الدراسات ويكرهون أن يثقلوا على أنفسهم بها . وكان ذلك الصديق لها محباً وبها كلفا . فكان يلقى الفتى في دروس الاستاذ ليتمان فيكتب عن الاستاذ كل ما كان يقول ، وكان يخلو الى صديقه بعد ذلك فيعيد معه الدرس والاستظهار . ولم ينس الفتى يوماً احتفل فيه طلاب الجامعة بوداع أستاذهم ليتمان في آخر

العام بفندق من فنادق مصر الجديدة . وشهد هذا الاحتفال أساتذة الجامعة من المصريين والمستشرقين وخطب الطلاب مثنين على أساتذتهم. فأكثروا ثم قام هذا الصديق فأثنى على الاساتذة المستشرقين . وعلى الاستاذ ليتمان خاصة . ولكنه لم يخطب باللغة العربية ولا بلغة أوروبية وانما ألقى كلمته باللغة السريانية ، وتصوّر رضى الاساتذة الاجانب عنه واعجابهم به واغتباط الاستاذ ليتمان بما أتيح له من نجح وبأن تلميذاً من تلاميذه المصريين قد استطاع أن يخطب بهذه اللغة القديمة التي لا تجري بها الالسنة الا في بعض الكنائس وفي قاعات الجامعات بين الاساتذة والطلاب .

وقد رأى الفتى أستاذه ليتمان بعد ذلك مرات كثيرة في مواطن مختلفة ، فلم يحس عنده مثل هذه السعادة الا في موطنين اثنين . أحدهما في ليدن بهولندا عندما سمع تلميذه الفتى يلقي بحثه في مؤتمر المستشرقين ، فلم يملك دموعه التي أخذت تفيض على وجهه بين الزملاء ، والآخر في كلية الآداب بجامعة القاهرة عندما شارك تلميذه في امتحان السيدة سهير القلماوي لدرجة الماجستير ، وأعلن مفاخراً بعد فوزها بالدرجة أنه مغتبط سعيد لانه يشارك في تخريج هذه الفتاة التي يعدّها حفيدته لانها ابنة تلميذه ذاك الفتى . وما أكثر ما تحدث بعد ذلك بأنه جدٌّ في علم له ابن وله أحفاد .

أما الصديق الثاني فقد كان أزهرياً مبغضاً لدروس الازهر ، شديد النفور منها ، قليل الالمام بمجالس الشيوخ ، غير حفي بالجامعة ولا مكترث لها ولا مختلف اليها ، ولم يعرفه الفتى في الازهر ولا

في الجامعة ، وانما عرفه في قهوة الكلوب المصري قريباً من سيدنا الحسين . وكان غريب الاطوار يضحك من نفسه ، وربما أغرى الناس بالضحك منه .

كان من أهل القرن الثالث أو الرابع ، وكان يعيش في القرن الرابع عشر للهجرة . كان قليل الاحتفال بزيّه وشكله وبزته ، يهمل هذا كله اهمالاً ظاهراً . ربما تكلفه ممعناً في مخالفة الناس . وكان معنياً باللغة يجد في اتقانها ويتتبّع غريبها ، فيحفظه ويحصي نوادره . وكان مع ذلك مشغوفاً بالحياة الحديثة يأخذ منها طيباتها حين تتاح له ، ويكره أن يتعمقها أو يعرف دقائقها ، وحاول أن يتعلم الفرنسية فلم يحسن منها الا تحيـــة الصباح وتحية المساء وجملاً قصاراً ، يلقيها بعض الناس إلى بعض حين يلتقون . ثم ضاق بها فأعرض عنها واكتفى من الحياة الحديثة بما كان يصيب من طيباتها بين حين وحين .

وكان قد أقبل من أقصى الصعيد واحتفظ بلهجته تلك فلم يكد يغير منها شيئاً . وكان ربما أضفى هذه اللهجة على تلك الجمل الفرنسية التي كان يلقيها فيضحك منها ويضحك الناس .

وبفضل هذا الصديق استطاع الفتى أن يقرأ آثار أبي العلاء عندما حاول أن يضع رسالته لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة . كان يغدو عليه في داره بدرب الجماميز اذا كان الضحى فلا يفارقه الا اذا أقبل الليل . وكان يقرأ له اللزوميات وسقط الزند ومـــا شاء الله مما حفظ عن أبي العلاء . كان يقرأه متغنياً به غناء عذباً . وكان الفتى يسمع منه ويحفظ عنه ، ويطرب لانشاده وغنائه ،

وما زال كلما قرىء عليه شعر أبي العلاء لم يسمع صوت قارئه، وانما يسمع صوت صديقه ذاك مترنماً بهذا الشعر في صوته ذاك العذب الذي كان يضطرب بين الخشونة واللين.

ولم يذكر الفتى كم مرة قرأ شعر أبي العلاء ونثره مع صديقه ذاك ولكنه عرف انه قرأه مرات كثيرة وتأثر به أعمق التأثر، وآمن به أشد الايمان. واستيقن أن حياة أبي العلاء تلك هي الحياة التي يجب عليه أن يحياها ما استطاع الى ذلك سبيلا.

ورأى الفتى نفسه ذات يوم مستعداً لاملاء رسالته فتجرد صديقه ذاك للكتابة وجعل الفتى يملي، والصديق يكتب، فاذا احتاج الى الاستشهاد بشعر أبي العلاء أو نثره أو بما شاء الله ان يستشهد به من كلام القدماء بحث الصديق له عن هذه النصوص وأثبتها في مواضعها من الرسالة. وفي أشهر قليلة تم الاملاء وتمت الكتابة، وقرأ الصديق على صاحبه رسالته متغنياً بنثرها وشعرها، كما كان يتغنى بنثر أبي العلاء وشعره، واطمأن الفتى الى رسالته وأزمع أن يقدمها الى الجامعة. ولكن كيف السبيل الى تقديمها وليس عنده منها الا هذه النسخة التي كتبها الصديق وعليه أن يقدم منها نسخاً خمساً؟

وهنا يظهر الصديق الثالث فيحمل عن الفتى ثقل هذا العناء. وكان هذا الصديق الثالث أزهري النشأة أيضاً. ولكنه كان من طراز آخر مخالف كل المخالفة لمن عرف الفتى في الازهر والجامعة

من الرفاق. كان حسن الصورة، وسيم المنظر، رائق الشكل، معنيّاً بزيّه أشد العناية، يتكلف فيه الاناقة وينسق بين ألوانه تنسيقاً. وكان شديد عذوبة الصوت، ممعناً في خفة الروح، ظريفاً لبقاً مترفاً الى حد ما. كان أبوه شيخاً كريماً ميسّراً عليه في الرزق، مبسوط اليد في الانفاق على ابنه ذاك، ولكنه كان على ذلك معتدلاً محافظاً على التقاليد. وكان ابنه طموحاً الى مزيد من نعيم الحياة، وما أباح الله من طيباتها. فلم يكفه ما كان أبوه يعطيه من المال فسعى حتى أصبح مدرساً في كلية الفرير ليضيف نفقة الى نفقة، وليحسن العناية بنفسه وزينته. وكان أبوه يرى ذلك فلا يصدّه عنه وانما ينظر اليه مبتسماً مشجعاً، يرى أن خير ما يصنع الشباب انما هو الجدّ والعمل والاعتماد على النفس وكسب المال، ما وجدوا الى كسبه سبيلا. وكان الفتى ورفاقه ينظرون الى هذا الصديق في شيء من الاعجاب به والرثاء له. يعجبون به لثرائه وترفه وظرفه، ويرثون له لانه لم يكن يحب الدرس ولم يكن يتعمق لوناً من ألوان العلم. وانما كان يلمّ بهذا كله الماماً. يختلف الى دروس الازهر ليسخر من الشيوخ والطلاب، ويختلف الى دروس الجامعة ليلقى أترابه وليتحدث عن الجامعة بين زملائه من المصريين والفرنسيين في كلية الفرير. وكان يضحك من كل شيء، ومن كل انسان، ويتندر بكل شيء وبكل انسان، ويرى الحياة فكاهة حلوة يجب أن يأخذ الانسان منها خير ما فيها.

كان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، وحدثته نفسه بأن ليس له من الزواج بد، فلما كلم أسرته في ذلك سخرت

منه وهزئت به . وقال له أبوه في دعة ورضى :

— ما زال بينك وبين الزواج وقت طويل وعمل ثقيل .

ولكن الفتى صمم على الزواج ، وأزمع أن يكره أهله على أن يزوجوه . وكان له ما أراد ، لانه اصطنع الجنون اذا دخل داره . فكان عاقلاً بين رفاقه في الازهر والجامعة ، وكان مجنوناً اذا أغلق الباب من دونه في منزله ذاك عند سيدنا الحسين . كان لا يكاد يدخل الدار حتى يؤذن أهله بمقدمه رافعاً صوته ما استطاع بهذه الكلمة التي كانت تخيفهم كل الخوف : « جنان » ثم يأخذ في تحطيم ما يستطيع تحطيمه ، وفي افساد نظام الدار حتى يضطر أهله الى اصطناع شيء من القوة لرده الى بعض الهدوء . وما زال يعقل بين رفاقه ويجن بين أهله حتى أصبح زوجاً ، وحتى رزق الولد ، قبل أن يبلغ العشرين .

وأقبل ذات يوم على رفاقه متحدياً أيهم يستطيع أن يؤرخ له بالشعر مولد الصبية التي ولدت له صباح ذلك اليوم . فلما لم يجد عند رفاقه شيئاً أنشدهم شعره الذي ختمه بتاريخ مولد تلك الصبية . ثم دعاهم الى غداء أعده لهم ، فأطمعهم في نفسه منذ ذلك اليوم . وكانوا كلما أرادوا أن يدعوهم الى غداء أو عشاء تملقوه بالشعر ، يجدون قليلاً ويعبثون في أكثر الاحيان ، ويستجيب لهم هو دائماً .

وأقبل ذات يوم لا يملك نفسه من الاغراق في الضحك حتى ظن به أصحابه الجنون . وحدثهم بعد أن أفاق بأن الذين رأوه

بين داره وبين الازهر ظنّوا به الجنون أيضا . وكان مصدر اغراقه في الضحك انه اجتمعت له طائفة حسنة من الجنيهات ، فاشترى لنفسه خاتماً له فصّ من الماس نفيس ، ورأى أبوه هذا الخاتم فلما سأله عن ثمنه أنبأه بأنه اشتراه بأربعين جنيهاً . فقال الشيخ ساخراً :

– لقد فسد الزمان ! ما رأيت قبل اليوم قط فتى يحمل في أصبعه أربعين أردباً من القمح .

وجعل الفتى يتصور هذا المقدار الضخم من القمح وقد كدس بعضه على بعض ، وأقبل هو فحمله باصبع واحدة . وكانت هذه الصورة هي التي أغرته بالضحك . ودفعته اليه حتى عرّضته لتهمة الجنون .

لقي هذا الصديق صاحبه الفتى ذات مساء في قهوة الكلوب المصري . وكان الفتى ذاهلاً يفكر في رسالته كيف يقدمها الى الجامعة وليس عنده منها الا النسخة التي املاها . وهو لا يعرف كيف يكتب النسخ الاربع الاخرى ، فلما عرف صديقه منه ذلك قال له متضاحكاً : « هوّن عليك .. فلن تنقضي أيام حتى تقدم رسالتك الى الجامعة . » ثم أصبح فاشترى اداة من أدوات الطبع على البلوظة ، واستأجر ناسخاً كتب الرسالة بالحبر الذي يلائم تلك الاداة ، وأعدّ من الرسالة نسخاً قدمت الى الجامعة . وأصبح الفتى أول طالب مصريّ يرشح نفسه في الجامعة المصرية للظفر بدرجة الدكتوراه .

وأقبلت بشائر الصيف ، وحدد اليوم الذي تناقش فيه رسالة الفتى . وأقبل الفتية الازهريون في مساء ذلك اليوم على الجامعة يحيطون بصديقهم مشجعين له . يُحيون في نفسه الامل ويزينون في قلبه المستقبل الذي ينتظره ، الا ذاك الصديق الذي طبع لـه الرسالة . فقد كان يتحدث اليه حديث المنذر المحذّر ، لا حديث المشجّع المؤمّل . ينذره بقسوة الممتحنين ، ويحذره من أن يكون له في الجامعة يوم كيومه في الازهر ، ويؤكد له انه ليس مستعداً لان يقدم له بعد رسوبه في الامتحان الثاني صينية المكارونة تلك التي قدمها اليه بعد رسوبه في الازهر .

ولكن الفتى لم يرسب في هذه المرة ، وانما ثبت لاساتذته الذين جادلوه وألحوا عليه في الجدال ، وظفر منهم بعد لأي بدرجة الدكتوراه .

وسجلت الجامعة هذا الامتحان ونجاح الفتى فيه بهذا المحضر :

« في الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء خامس مايو سنة ١٩١٤ اجتمعت بدار الجامعة لجنة امتحان العالمية المؤلفة من الاستاذ محمد الخضري رئيساً والاستاذين محمد المهدي ومحمود فهمي المدرسين بالجامعة والاستاذين اسماعيل رأفت بك وعلام سلامة المندوبين من نظارة المعارف العمومية اعضاء لامتحان ... الطالب بالجامعة المصرية وكان اجتماعها بهيئة علنية .

ناقشت الطالب في رسالته التي قدمها في تاريخ ابي العلاء المعري ثم في العلمين اللذين اختارهما وهما الجغرافيا عند العرب والروح

الدينية للخوارج واستمرت المناقشة ساعتين وسبع دقائق. وبعد نهاية الاختبار اجتمعت للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات فقررت انه يستحق :

(ا) درجة جيد جداً في الرسالة.

(ب) درجة فائق في الجغرافيا عند العرب.

(ح) درجة فائق في الروح الدينية للخوارج.

وفي منتصف الساعة الثامنة اعلنت هذه النتيجة للجمهور وسط قاعة الامتحان.

رئيس لجنة الامتحان

محمد الخضري »

٥ مايو سنة ١٩١٤.

وتلقت الجماعة الضخمة التي كانت تضيق بها القاعة هذا الاعلان بالتصفيق الشديد الملح. ثم وقف علوي باشا — رحمه الله — فأعلن انه تبرع بجائزة قدرها عشرون جنيهاً لاول طالب تخرّج في الجامعة المصرية. فاتصل التصفيق. ثم تفرق الجمع، وانصرف الفتى مع رفاقه فأنفقوا ساعات في بيت الزيات لم يتحدثوا فيها الا بأمر الرسالة والامتحان وما أتيح لصديقهم من فوز.

ولم ينم الفتى من ليلته تلك... حال الابتهاج بينه وبين النوم، وهو لا يعلم أنه أحس السعادة قط كما أحسها في ذلك اليوم وفيما تلاه من الايام، لا لأنه ظفر بهذه الدرجة الجامعية، ولا لأنه كان أول ظافر بها. ولا لهذه الاحتفالات التي أقيمت له، ولا

لكثرة ما تحدثت الصحف عنه وعن فوزه ، ولا للعشرين جنيهاً التي أجازه بها علوي باشا ، والتي كانت تزيد على مرتب أبيه عن شهر كامل ملوءه الجد والكدّ والعناء ، بل لشيء آخر بعيد عن هذا أشد البعد ، قريب منه أشد القرب . وهو انه قد قبل تحدي الجامعة وظفر بدرجة الدكتوراه وأصبح سفره الى فرنسا ديناً له على الجامعة ليس لها بد من أن تؤديه اليه .

وكانت حياته في الاشهر التي أنفقها في مصر قبل أن يعبر البحر حلماً حلواً متصلاً ، ولكنها على ذلك لم تخل من أيام شداد .

الفصل التاسع

الفلسفة المفسرة !..

ولم تمض أيام بعد فوز صاحبنا في الامتحان ، حتى دعتـه الجامعة ، وأنبأته بأنه سيشرف بالمثول بين يدي الحضرة العلية الخديوية ، من غد ، اذا كانت الساعة الخامسة بعد الظهر ، وأن عليه أن يتهيأ للسفر الى الاسكندرية ظهر الغد ، وسيقدّمه الى الجناب العالي ، حضرة صاحب السعادة احمد شفيق باشا الذي سيسافر الى الاسكندرية في نفس الموعد وفي نفس القطار .

ووجم الفتى لهذا النبأ وجوماً معقداً حقاً ، كان فيه السرور والغرور ، وكان فيه الخوف والفرق ، وكانت فيه حيرة أي حيرة .. فليس قليلاً على ذلك الفتى الازهري الفقير الضرير ان يرقى في هذه السرعة الى حيث يلقى صاحب العرش ، وأين هو من صاحب العرش ... وأين صاحب العرش منه .. !

وكيف السبيل الى الاسكندرية ومع من يسافر ؟! وغلامه ذاك الاسود لا يحسن ان يصاحبه في شوارع القاهرة الا في كثير من الجهد والعناء ، فكيف بمصاحبته الى هذه المدينة البعيدة الغريبة التي تقوم على ساحل البحر في أقصى الارض ؟ وكيف يصاحبه

الى القصر ، وكيف يكون دخوله على الامير ..؟

ثم في ايّ هيئة يدخل على الامير ..؟! أفي ثيابه تلك الرثة التي لم يكن يرضى عنها ولا يطمئن اليها ولا يظهر فيها لنظرائه الا في شيء من الكره والحياء .. ! أم في ثياب أخرى تليق بلقاء الامير ، ومن له بهذه الثياب .. ؟ وماذا يصنع بعد ان يخرج من القصر ؟ وأين يقضي ليلته في هذه المدينة الغريبة .. ؟ ومن له بما تحتاج اليه هذه الرحلة من النفقات ؟ وهو لا يملك الا قروشاً لا تتجاوز العشرة ولا سبيل له الى أن يطلب الى أخيه شيئاً ، فلم يعرف أخوه قط كيف يكون عنده أكثر من جنيه ينفق منه حتى اذا أتى عليه تكلّف الاقتراض من صديقه هذا أو ذاك ، حتى يكون أول الشهر ..

ازدحمت هذه الخواطر على الفتى فشغلته حتى ان يُرجع الجواب على سكرتير الجامعة ، حين ألقى اليه هذا النبأ السعيد . وكأن السكرتير قد أحس شيئاً من حيرته فقال له متلطفاً :

— وسيكون سفرك الى الاسكندرية ورجوعك منها على نفقة الجامعة ..

فابتسم الفتى في مرارة ، ولم يزد على أن شكر ثم انصرف .

ورآه مساء ذلك اليوم راضياً مغتبطاً في الكلوب المصري ، يضحك ملء شدقيه . فقد لقي صديقه ذلك الموسر الذي كان يحمل في اصبعه أربعين اردباً من القمح ، لقيه ولم يطلب اليه شيئاً ،

وانما أنبأه بأنه مسافر من الغد في صحبة شفيق باشا للتشرف بلقاء الامير . قال الصديق مبتهجاً :

ـ فسأكون رفيقك في هذه الرحلة .. وستريح غلامك هذا الذي أثقلت عليه في هذه الايام .

ثم سكت لحظة كأنه كان يفكر في شيء .. وأحس الفتى ـ وان لم ير ـ أن صديقه كان ينظر اليه نظرة فاحصة .. ثم انقطع الصمت ،

وقال الصديق :

ـ ألم يعلن علوي باشا أنه قد أجازك بعشرين جنيهاً .. ؟

قال الفتى :

ـ بـــلى .

قال الصديق :

ـ فهلمّ معي فليس لك بد من ثوب تلقى فيه الامير .

قال الفتى :

ـ وأي ثوب ... ؟

قال الصديق :

ـ اصحبني ولا عليك .

ثم مضى معه الى حيث اشترى له معطفاً من هذه المعاطف التي كان الازهريون يسمونها الكاكولا ، ولم يكد الفتى يدخل فيها ويجمع طرفيها على صدره بأزراره تلك حتى أحس كأن شخصه

قد تغيّر ، وكأنه قد خرج من طور من أطوار حياته ، ودخل في طور جديد .

ولم يرد الفتى أن يبرح القاهرة دون أن يلقى أستاذه لطفي السيد ، فسعى اليه حين ارتفع الضحى من الغد ، وتلقّاه الاستاذ حفياً به فضمّه اليه وقبله ، وقال :

ــ امض مصاحباً ، واذكر أنك في أول الطريق .

ورأى الفتى نفسه في قطار الاسكندرية ، وفي الدرجة الاولى التي لم يعرفها قبل ذلك اليوم . ورأى نفسه بين صديقه ذاك وبين شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي ، وهم يأخذون في أطراف من الحديث ، والباشا يقص عليهما فنوناً من حياته حين كان طالباً يختلف الى دروس العلوم السياسية في باريس أو في لوزان . والفتى يسمع ويرى نفسه مختلفاً بعد وقت يقصر أو يطول الى دروسه في السوربون ، وتعرض له في باريس خطوب لا تشبه الخطوب التي عرضت له حين كان يختلف الى دروسه في الأزهر او في الجامعة .

فاذا بلغ القطار مدينة الاسكندرية ذهب الفتى وصاحباه ، الى القصر في عربة فخمة كانت تنتظر الباشا في المحطة ، والفتى ينكر نفسه ، وينكر هذا الترف الذي لا عهد له به ، وهو في الوقت نفسه حائر ذاهل يفكر فيما سيسمع من الامير وفيما سيقول له :

وقد أدخل على الامير . فاذا هو يلقى رجلاً كغيره من الرجال

الممتازين الذين كان يلقاهم في الجامعة من اعضاء مجلسها ، واذا هذا الرجل يلقاه في سماحة سمحة بريئة من التكلف ، واذا هو يأخذ بيده فيجلسه على أريكة ويجلس عليها الى جانبه ، مهنئاً له بفوزه ، متمنياً له الخير والنجح فيما يستقبل من الايام . سائلاً اياه بعد ذلك عما يريد أن يصنع بعد أن ظفر بدرجته تلك ..

قال الفتى :

– سأحاول السفر الى فرنسا لادرس الفلسفة أو التاريخ .

قال الامير :

– اياك والفلسفة ... فانها تفسد العقول .. !

وكان الانكار قد ظهر على وجه الفتى ، فمضى الامير قائلاً :

– بل هي لا تفسد العقول وحدها ، ولكنها تفسد الذوق ايضاً .. لقد ذهبت الى باريس منذ سنين واستقبلني الطلاب المصريون هناك ، وكانوا جميعاً حاسري الرؤوس في أيديهم قلانسهم الا واحداً منهم كان حاسر الرأس كزملائه ، ولكنه لم يكن يمسك قلنسوة وانما كان يمسك طربوشاً في يده .. فلما سألت عن هذا الفتى أنبئت بأنه منصور فهمي وبأنه يدرس الفلسفة . فعلمت أن الفلسفة قد أفسدت عليه عقله وذوقه جميعاً . فصاحب الطربوش لا يرفعه عن رأسه ولا يأخذه بيده حين يلقى الخديو ، وصاحب القلنسوة لا يتركها على رأسه وانما يأخذها بيده في مثل هذا المقام . ولكن صاحبنا كان يدرس الفلسفة !

ثم أغرق في ضحك متصل ، والفتى مغرق في الوجوم ...

فلما سكت عنه الضحك ، قال وهو يضع يده على ركبة الفتى :

— ستسافر الى فرنسا ، ولكن لا تدرس الفلسفة وعليك بالتاريخ فانه علم عظيم ...

ثم اعرض عن الفتى وأخذ يتحدث الى شفيق باشا في رطانة تركية لم يفهم منها الفتى قليلاً ولا كثيراً . ووقف بعد دقائق ، فوقف الفتى وصحبه شفيق باشا الى خارج الغرفة حيث كان ينتظره صديقه ذاك ..

فودعه شفيق باشا واسلمه الى صاحبه وعاد هو الى الامير .

وانسل الصديقان من القصر ، لا يحفل بهما أحد ولا يلتفت اليهما احد . وخرجا من القصر فلم يجدا عربة تنتظرهما ، وانما مضيا أمامهما يقص الفتى على صديقه حديث الامير اليه ، والصديق يضحك . ثم يقول :

— هلم الى مكتب التلغراف لننبيء الجامعة بانتهاء المقابلة . ثم نخلص لانفسنا .

قال الفتى :

— فسننبيء الجامعة غداً حين نعود .

قال الصديق :

— اسكت يا احمق ، فان هذه البرقية ستكون أعظم خطراً وأبعد أثراً من المقابلة نفسها ، سيقرأها أعضاء مجلس الادارة وستقضي على ترددهم في ارسالك الى فرنسا .

وذهبا الى مكتب التلغراف ، وكتب الصديق الى الجامعة هذه البرقية ، لم يؤامر فيها الفتى ، وانما قرأها عليه بعد أن انصرفا من المكتب :

« حضرة سكرتير الجامعة المصرية بالقاهرة .

لبثنا في حضرة الجناب العالي ربع ساعة لقينا فيه من لطف المليك وعطفه على الجامعة وعلينا ما أطلق ألسنتنا بالحمد له والثناء عليـــه .

طه حسين »

وأنفق الصديقان ساعات حلوة في الأسكندرية ، يهيمان على ساحل البحر ، ويأخذان في ألوان من الحديث فيها قليل من جد وكثير من العبث . واستكشف الفتى في صديقه خصلة لم يكن يعرفها منه ، وهي الاسراف على نفسه في الاكل . فلم يكن يلقى شيئاً يؤكل مما يحمله الباعة المتجولون الا اشترى منه وأقبل عليه يزدرده ازدراداً ، والغريب أنه أقبل على عشائه كأنه لم يأكل قبله شيئاً . ثم قضيا ليلتهما في فندق تيمّن الصديق باسمه ، وقال لصاحبه :

ــ فأل حسن ! ستسافر الى فرنسا لان الفندق يتسمى باسمها ، وينسب اليها ..

ولم يبلغ الفتيان مدينة القاهرة ، حتى قال الصديق لصاحبه :

ــ إذا ادى اليك علوي باشا جائزته فاذكر أنك مدين لي بستة جنيهات واحذر أن تبطىء في أدائها الي .. !

وكان قبض هذه الجائزة اثقل على الفتى من لقائه للامير . فقد دعي الى العشاء على مائدة علوي باشا . مع أساتذته الذين امتحنوه . فجلس الى المائدة ولكنه لم يصب من الالوان التي قدمت اليه شيئاً . كان شديد الحياء بطبعه ، وكانت المهابة تملك نفسه وتفسد عليه أمره كله . وكان لا يدري ماذا يصنع بشخصه كله وقد وضعت أمامه أدوات المائدة فلم يكد يمسها حتى أدركه منها ذعر شديد .. ماذا يصنع بالملعقة ، وماذا يصنع بالشوكة والسكين ! وكيف يتصرف بها ... أليس الخير كل الخير في أن يلبث في مكانه هادئاً ساكناً لا يعرض نفسه لسخرية أو اشفاق ؟

وظل في مكانه هادئاً ساكناً ساكتاً ايضاً لا يحرك يداً ولا لساناً .

وأقبل الاساتذة على طعامهم غير هيابين ولا وجلين ولا مترددين ولا حافلين بهذا الفتى الجالس بينهم كأنه التمثال ! قد انعطف أعلاه على أسفله .. وهو مغرق في السكون والصمت لا يصنع شيئاً ولا يقول شيئاً . كان يستحي أن يحرك يده أو لسانه . وكان يستخذي من سكونه وصمته ، وكان يتعجل مرّ الساعات ويتمنى أن تعود اليه حريته حين يُرد الى غلامه ذاك الاسود الذي كان ينتظره غير بعيد . وكان علوي باشا وحده يلح عليه في أن يصيب من هذا اللون او ذاك ، فلما استيأس منه ، قال في صوت حزين :

ــ أرجو أن يكون خادمك قد أعد لك ما يعشّيك .

وفرغ القوم من طعامهم ، واخذوا في اطراف من الحديث ، وشاركهم الفتى في بعضها ، ثم قام الباشا فأدار مفتاحاً في خزانة

وجذب اليه درجاً من أدراجها ثم أعاد إغلاقها . ثم أقبل على الفتى فدسّ في يده ورقة تصبّب جبينه لها عرقاً . فلما أصبح عرف أنها كانت الشيك الذي دعي الى الحشاء ليتسلمه .

وأدى الفتى دينه وأجاز خدم الجامعة كما أجازه علوي باشا ، وبقي له جنيهات تسعة سطا عليها أخوه فلم يُبقِ له منها شيئاً ! !

على ان هذا كله لم ينس الفتى حقه عند الجامعة ، فهي قد علقت سفره على أن يفوز بالدرجة . وقد فاز بها فيجب ان تبرّ الجامعة بوعدها ، والفتى يكتب اليها هذا الكتاب :

« صاحب العطوفة رئيس الجامعة المصرية

قد عرضت منذ حين على الجامعة المصرية أن توفدني الى أوربا لادرس فيها التاريخ والفلسفة . فكلفتني تعلم الفرنسية . ثم قبلت الطلب وعلقت تنفيذه بنيلي شهادة العالمية . واذ كنت قد فرغت من هذا كله بحمد الله فلم يبق الا أن يحدد مجلس الادارة موعد السفر وتكتب الجامعة بذلك لاعدّ له عدته .

لذلك رفعت الى عطوفتكم هذا الطلب راجياً أن تتفضلوا بقبوله ولكم الشكر أفندم .

١٨ مايو ١٩١٤ طه حسين »

وبدأت الجامعة البرّ بوعدها ، فقررت ضمّ الفتى الى بعثتها بباريس وأرسلت اليه هذا الكتاب :

« حضرة المحترم الدكتور

اطلع مجلس الادارة على العريضة المقدمة من حضرتكم بتاريخ

١٨ مايو سنة ١٩١٤ فقرر انضمامكم الى ارسالية الجامعة بباريس للدراسة التاريخ . وأن يكون سفركم في الاسبوع الاول من شهر أغسطس القادم .

وهذا أخطاراً لحضرتكم بذلك وأقبلوا وافر تحياتي .

رئيس الجامعة المصرية »

وكذلك تحقق هذا الحلم السعيد الذي داعب نفس الفتى وداعبته نفسه أعواماً ، وأصبح صاحبنا عضواً في بعثة الجامعة وتقرّر أن يعبر البحر على الباخرة لوكس في الثامن من شهر اغسطس ، وسافر الفتى الى أقصى الصعيد حيث كانت تقيم أسرته ليودع أبويه فأقام في أسرته أسابيع كانت تثير في نفسه كثيراً من الشجون . فقد كان يرى أباه مبتهجاً أشد الابتهاج بسفر ابنه الى أوروبا بعد ان ابتهج اشد الابتهاج كذلك بفوز ابنه بدرجته الجامعية .

كان يتحدث بذلك الى أهله ، وكان يتحدث به الى الناس ، وكان كثيراً ما يقول لاولئك وهؤلاء : لله في خلقه شئون . هذا أضعف بنيّ وأخفهم علي حملا وأقلهم نفقة . قد أتيح له ما لم يتح لاخوته الاقوياء المبصرين الذين كلفوني من النفقة ما أطيق وما لا أطيق ، لم تتحدث الصحف عن واحد منهم ولم يقابل الخديو واحداً منهم ، ولم يخطر لي ولا لواحد منهم انه قد يسافر الى أوروبا كما سافر اليها ابناء الاغنياء . وكان قصارى ما تمنيت لابني هذا ان يجلس الى عمود في الازهر ليلقي الدروس على بعض طلابه . فاذا هو مسافر الى باريس تلك التي نسمع من أحاديثها الاعاجيب !

وكانت أم الفتى راضية عما أتيح لابنها من النجح ، ولكن رضاها كان مراً ثقيلا . كانت تفكر في حال ابنها وفيما سيعرض له من الخطوب في بلاد الغربة وفيما سيتكلف من الجهد ويحتمل من المشقة ، وكانت كلما رأت ابتهاجه وابتهاج أبيه ثقل عليها هذا التفكير ، وربما استخفت بدموعها حتى لا تنغص على الاسرة هذا الابتهاج .

وأقبل الفتى ذات يوم الى القاهرة يتهيأ للسفر البعيد ولكنه لا يكاد يأخذ في ذلك حتى ينقلب فرحه حزناً وسروره ألماً ولوعة . فقد أعلنت الحرب واستردت الجامعة طلابها من أوروبا ووقفت ارسال البعثة الجديدة واضطر الفتى الى أن ينتظر ... ماذا ينتظر والى متى يكون هذا الانتظار : أيقصر أم يطول .. ؟

الفَصْلُ العَاشِر

أُستاذ جامعي بخمسة جُنَيْهات !

... وكانت تلك الايام الطوال الثقال التي قضاها صاحبنا في القاهرة مروّعاً ملتاعاً بعد أن حالت خطوب الحرب بينه وبين ما كان يريد .. فقد أسلمته هذه الصدمة القاسية الى همّ متصل ذاد عنه النوم . فلم يكن يذوقه الا حين يسفر الصبح ويستيقظ الطير ، وقد بلغ منه الجهد غايته ، وانتهى به العناء الى أقصاه ، بعد ليل مسهد وفكر مشرد ونفس قلقة عرفت كيف تنسل من ماضيهـا الثقيل ووقفت أمام المستقبل المظلم حائرة لا تعرف كيف تنفذ منه الى ما كتب لها فيه من سعادة أو شقاء .

في تلك الأيام كان الفتى فارغ النفس والقلب ، ليست أمامه غاية يسعى اليها ولا أرب يطمع فيه . يصبح فلا يجد أمامه عملا ينفق فيه بياض النهار ، ويمسي وقد ثقلت عليه الراحة . فلا يحس من التعب والجهد ما يغريه بالنوم أو يغري به النوم ؛ يرى نفسه بعد أن جاوز العشرين لا يزال عيالاً على أبيه الذي أثقلته نفقة البنين ، وعلى أخيه الذي جعل يعمل في الجمعية الخيرية الاسلامية منتظراً ذلك المنصب الذي جدّ وكدّ في سبيله ، وهو منصب

القضاء الشرعي . في تلك الايام أبغض صاحبنا نفسه ، ومل ّ حياته وزاده درسه لأبي العلاء بغضاً لنفسه ، وتبرماً بحياته واغراقاً في التشاؤم المظلم الذي لا قرار له .. ورأى نفسه ذات يوم وقد انتهى به التشاؤم والضيق الى حيث ندم على ما فرط في جنب الازهر وشيوخه حتّى حيل بينه وبين درجة العالمية تلك التّي كان يسخر منها أشد السخر ويزهد فيها أعظم الزهد بعد أن صرفت عنه فلم يحاول أن يستأنف السعي اليها .

وما أكثر ما كان يردد في نفسه ذلك الحديث المر : « لو قد ظفرت بتلك الدرجة لكان لي عمل أغدو اليه ، ومورد أعيش منه ، ولما أثقلت بهذه الحياة البغيضة على قوم من حقهم أن توضع عنهم الاثقال وتخف عليهم الاعباء . »

والغريب أنه كان يخترع لنفسه هذه الحياة المرة البغيضة اختراعاً . فهو لم يشعر من أبيه ولا من أخيه ببعض ما كان يجد في نفسه من الحزن والضيق واليأس ، ولم يلاحظ أن أحدهما ضاق من عنايته به أو رعايته له . وانما جرت الصلة بينه وبين أسرته مطردة كما كانت تجري من قبل لم يتغير فيها شيء ولم ينبُ به مكانه في بيته ذاك ولا مكانه في القاهرة بين صديقه ، وانما هو الذي كان يضيق باطراد الصلة وامتداد حياته على هذا النحو دون أن يتغير قليلاً أو كثيراً .

فيم اذن كدّ وجدّ وشقي وتكلف ما تكلف من الدرس والامتحان وظفر بما ظفر به من النجح ؟ وفيم كثر الحديث عنه والاحتفاء به ؟ وفيم كانت هذه الاحلام الحلوة والآمال العراض ؟ أكان هذا

وسيلة الى هذه الحياة الفارغة التي يحياها والى أن يصبح آخر الامر كلاً على أسرته أينما توجهه لا يأت بخير ؟

بهذا كله كان يناجي نفسه ان أتيحت له الخلوة في النهار ، وحين تفرض عليه الخلوة اليها في الليل . وهو على ذلك لا يُظهر لاحد شيئاً من ضيقه وتبرمه ويأسه ، وانما يلقى الناس كما تعود أن يلقاهم باسماً لهم وللحياة ، آخذاً معهم في أطراف من الحديث مختلفة كأنه لم يكن يائساً ولا شقياً ولا محزونا .

ثم يخطر له ذات يوم خاطر يخرجه من الملل واليأس ويدفعه لا الى الامل بل الى محاولة الامل . فما الذي يمنعه أن يعلّم في الجامعة بعد أن تعلم فيها ؟ وأن يختلف اليها أستاذاً بعد أن اختلف اليها طالباً ؟ وأن يكون شأنه معها كشأنه مع الازهر لو ظفر بدرجته وهو لا يريد من الجامعة أجراً فما ينبغي أن يكون عيالاً عليها . وليست هي بالغنية ولا بالمحتاجة اليه ، وانما يريد أن يشغل نفسه عن نفسه ، وان يشعر الناس أنه يستطيع أن ينفع نفسه وينفعهم ، وأن وجوده في هذه الدنيا ليس عبثاً ولا لغواً . وهو يكتب الى رئيس الجامعة هذا الكتاب :

« صاحب العطوفة رئيس الجامعة المصرية

« كانت هذه الحرب الحاضرة مؤخراً لي عن السفر الى باريس والالتحاق بطلبة ارسالية الجامعة كما قرر مجلس الادارة ، واذ كنت خريج الجامعة وقد استفدت منها وتخصصت لها وأنا مضطر الى

أن أبقى بمصر ريثما تنتهي هذه الحرب ، فقد أردت أن أمضي هذه السنة في تدريس تاريخ الآداب العربية في الجامعة بغير أجر . وأعتقد أني قادر بمعونة الله وقديم فضل الجامعة علي أن أفيد الطلاب ونفسي بهذا الدرس فائدة حسنة وأبعث في الآداب وتاريخها شيئاً من الحياة غير قليل ، فاذا راق هذا الاقتراح لمجلس الادارة فأنا أرجو أن يتفضل فيقررني (كذا) مدرساً لهذه المادة في الجامعة ريثما تنتهي الحرب وله الشكر الجميل . »

وعرض هذا الكتاب المغرور على مجلس الجامعة في السادس عشر من سبتمبر من ذلك العام ، فقُبل الطلب ورُفض ما عرض صاحبه من المجانية ، وكلّف علوي باشا رحمه الله شيئين : أحدهما أن يشكر للفتى تبرعه بهذا الدرس . والثاني أن يقدر له مكافأة تلائم حاله وتلائم طاقة الجامعة .

وأخذ علوي باشا يساوم الفتى في هذه المكافأة ، فعرض عليه أول ما عرض أن تكون مكافأته بمقدار ما يكون من اقبال الطلاب على درسه ، وأن تفرض الجامعة على الذين يختلفون الى هذا الدرس رسماً يسيراً ثم يجمع ما يحصّل من هذه الرسوم ويُدفع الى الاستاذ الفتى . وزعم علوي باشا لصاحبنا أن بعض الجامعات الالمانية تسير هذه السيرة مع الاساتذة المبتدئين ، ولكن صاحبنا اعتذر من قبول هذا العرض لانه يجعله مديناً لطلابه ديناً مباشراً بما يرزق من مرتب آخر الشهر .

قال علوي باشا :

ــ واذن فستعطيك الجامعة مكافأة قدرها خمسة جنيهات في كل شهر وهي أكثر مما كان الازهر يعطيك لو جلست فيه مجلس الاستاذ .

واستخذى الفتى من هذا الحديث كله فلم يرجع على علوي باشا جواباً ، وانما انصرف عنه محزون القلب كئيب النفس كاسف البال ، راضياً مع ذلك شيئاً من رضى ، فقد أصبح له عمل ينفق فيه وقته وجهده . وليس بقليل أن يقال عنه إنه أستاذ في الجامعة . وأقبل على الادب وتاريخه يعدّ دروسه فيهما . وقرر أن يختار للدرس في عامه الاول تاريخ الادب الاندلسي . وما هي ألا أن غرق في « نفح الطيب » وما اليه من كتب الادب العربي في الاندلس ، فنسي نفسه ونسي الناس ، ولكنه لم ينس البعثة الى باريس ولم ينس الحرب التي تحول بينه وبين باريس . وكيف السبيل الى نسيان الحرب وأنباؤها المروعة تصبحه وتمسيه في كل يوم ؟

وانه لغارق في الادب الاندلسي يقرؤه مع صديقه ذلك الذي قرأ معه أبا العلاء ويقرؤه مع خادمه كلما غاب عنه صديقه ذاك ، واذا الجامعة تدعوه فيذهب اليها عجلاً وجلاً ذات ضحى ، وهناك يلقى علوي باشا ــ رحمه الله ــ فيستقبله باسماً له رفيقاً به ، وينبئه بأنه مسافر بعد أيام الى فرنسا . فقد انجلت الغمرة بعض الانجلاء وانهزم الالمان أمام باريس ، وسعى ممثلو فرنسا في مصر عند الحكومة وعند الجامعة لتعيدا طلابهما الى الجامعات الفرنسية .

ومنذ ذلك اليوم أقبل الفتى على تهيئة نفسه للسفر مستأنفاً حياته تلك التي كانت تملؤها الاحلام العذاب . والآمال العراض . ويقبل اليوم الموعود فيسافر الفتى من القاهرة ومعه أخ له يرافقه في سفره ، ويحيا معه في فرنسا ليتمّ درسه هناك ويعين أخاه على الحياة الشاقة في تلك البلاد الغريبة النائية . وقد أبت الجامعة أن تحتمل من نفقة هذا الأخ قليلاً أو كثيراً . فاضطر الاخوان الى أن يعيشا بمرتب واحد على ما في ذلك من ضيق وشدة . وقبلت الاسرة أن تعينهما بشيء من مال يسير بين حين وحين ، وعلى غير نظام مطرد .

وفي الرابع عشر من شهر نوفمبر أبحر الفتى من الاسكندرية ومعه أخوه وطالبان من طلاب البعثة الجامعية كان لهما في حياته في فرنسا شأن أي شأن .

فأما أحدهما فكان قد نيّف على الاربعين ، وكان غريب الاطوار حقاً . كان قد ظفر بالشهادة الثانوية وعمل في ديوان من دواوين الحكومة وانتسب الى مدرسة الحقوق الفرنسية . فكان يغدو على مكتبه ويروح الى مدرسة الحقوق حتى ظفر بدرجة الليسانس الفرنسية من جامعة باريس ، وكان مرتبه ضئيلاً ولكنه كان يحسن التدبير والاقتصاد فيؤدي رسوم المدرسة ويسافر الى باريس في كل عام لاداء الامتحان ، حتى اذا أتم الدرس طمع في أكثر من الدرجة التي ظفر بها . واتصل بعلوي باشا فقص عليه قصته ، وتأثر الباشا بهذه القصة وقدر أن هذا الفتى يجب أن يكون حريصاً على العلم محباً له مشغوفاً به ، ما دام قد تكلف في طلبه كل هذا

العناء، وقتّر على نفسه في الرزق كل هذا التقتير حتّى ظفر بهذه الدرجة التي أتيحت له. وجعله علوي باشا عضواً في البعثة الجامعية ليمضي في درس الحقوق حتّى يظفر بدرجة الدكتوراه. لم يحفل بتقدم سنه ولم يفرض عليه امتحاناً أو شيئاً يشبه الامتحان.

وأما الآخر فكان قد نيّف على الثلاثين، وكان قد تخرّج في دار العلوم وتقدم لمسابقة الجامعة فظفر فيها وأرسل الى فرنسا للتخصص في الادب العربي. فأقام فيها سنين متصلة ثم رُدّ الى مصر حين أعلنت الحرب ثم أعيد الى فرنسا بعد أن انجلت عنها الغمرة الاولى. وكذلك لم يشعر الفتى وأخوه بشيء من الوحشة في هذا السفر بفضل هذين الرفيقين. وكان سفراً غير قاصد، فيه كثير من جهد وفيه شيء من خطر أيضاً.

فقد اختيرت لسفر البعثة سفينة فرنسية فقيرة حقيرة رخيصة. وكان اختيارها لوناً من الاقتصاد. وكان اسمها «أصبهان»؛ وكانت على بؤسها وفقرها مرحة تحبّ الرقص في البحر، وتحسن اللعب على أمواجه ولا تحفل بما يلقى ركابها من أعقاب حبّها للرقص واللعب. وكانت تؤثر المهل على العجل، وتفضّل الاناة على السرعة. وكانت السفن تعبر البحر بين الاسكندرية ومارسيليا في أربعة أيام. فأما اصبهان فكانت تحب البحر وتؤثر أن تعبره في ثمانية أيام لا في أربعة؛ وصعد الفتى الى «اصبهان» يتعثّر في جبته وقفطانه. ولم يكد يبلغ غرفته في الدرجة الثانية ويسمع الجرس المؤذن بقرب اقلاع السفينة حتّى خرج من جبته وقفطانه،

وتخفف من عمامته ، ودخل في ذلك الزي الاوروبي ... وشغله دخوله في ذلك الزي عن اقلاع السفينة واندفاعها في طريقها هادئة أول الامر ، مضطربة بعد ذلك أشد الاضطراب ، ورأى الفتى نفسه حين أقبل المساء وقد فارق مصر ، ودُفع الى مغامرته تلك التي عرف أولها ولكنه لم يعرف ما يكون بعد أولها هذا من الاحداث والخطوب .

والحق انه لم يفكر في الاحداث ولا في الخطوب ، ولا في أول المغامرة ولا آخرها ، وانما شغل بزيّه الجديد ساعة وبعض ساعة ، ثم شغل باضطراب السفينة بعد ذلك ، فلم يفرغ منه الا حين أتمت السفينة رحلتها وانتهت به الى مارسيليا ذات مساء بعد ثمانية أيام طوال حافلة بالفزع والروع والضيق .

* * *

وقد لزم الفتى غرفته تلك منذ دخل السفينة الى أن خرج منها . لم يذهب الى غرفة المائدة ، وكيف يذهب اليها وهو لا يحسن الحركة في هذه السفينة التي لا تستقر ، ولا يعرف الجلوس الى موائد الطعام ، ولا يحسن استعمال تلك الادوات التي يستعملها الناس حين يطعمون ، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين من الاوروبيين بيديه كلتيهما أو احداهما ، كما كان يصنع في مصر ؛ فليس له بدّ اذن من أن يصيب طعامه في غرفته . وكان الرفاق قد وكلوا به خادماً من خدم السفينة يحمل اليه غداءه وعشاءه ، وقد أُعدا اعداداً حسناً ليصيب منهما حاجته . فكان الخادم يحمل اليه الطعام

في موعده فيضعه بين يديه ثم ينصرف عنه ويغلق باب الغرفة من دونه ، ثم يعود اليه بعد حين ليحمل ما وضع بين يديه من أطباق. وكان كلما عاد لحمل هذه الاطباق قال للفتى في ضحكة حزينة جملةً بعينها لا يغير منها حرفاً حتى حفظها الفتى ولم ينسها : «ما أقل ما تصيب من الطعام ! » وأفاق السفر ذات ليلة مذعورين فقد اضطربت السفينة اضطراباً عنيفاً مفاجئاً وكثرت فيها الجلبة ثم وقفت السفينة فجأة ، وجعلت الريح تعصف من حولها واشتد اصطخاب الموج ، وصوّت بعض النساء ، وعرف المسافرون أن عطباً قد أصاب محرك السفينة ، ولم يشك أحد في أن الخطر قريب.

وبينما كان السفر في ذعرهم وروعهم ، كان الرفيق الدرعمي مقبلاً على ذقنه ، يعمل فيها الموسى حتى اذا فرغ من ذلك دخل في ثياب النهار كما تعود أن يدخل فيها قبل أن يخرج من غرفته في كل يوم ، ثم أقبل على الفتى متكلفاً ضحكاً يغالب به الروع. فلما رآه مستلقياً في سريره قال متضاحكاً :

— وانك لتستقبل الآخرة على هذه الحال !

قال الفتى :

— وما تريد أن أصنع ؟

قال الدرعمي :

— فاني كرهت أن أستقبل الموت في قميص ، فحلقت ذقني واتخذت زينتي لاغرق كريماً لا يضحك الناس مني.

ثم اندفع في ضحك يائس وأخذ يتغنى في شعر البردة كما يتغنى فيه بعض أصحاب الطرق :

امن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وانه لفي هذا العبث ، واذا اضطراب الناس يهدأ . فقد عرفوا أن في السفينة من المهندسين والعمال من يستطيعون اصلاح ما أصاب محركها من عطب ، وانها ستستأنف سيرها بعد ساعات . وما أسرع ما استحال الروع الى ضحك ولعب وابتهاج ...

وتستأنف السفينة سيرها وقد سكنت ، فهي لا تعصف ، وسكن الموج فهو لا يقصف ، ومضت السفينة في طريقها هادئة مستأنية ، كأن رشدها قد ثاب اليها ، وكأنها هي قد ثابت اليه . وتبلغ مارسيليا مساء ذلك اليوم فيهبط صاحبنا من السلم لا يتعثر في جبته وقفطانه ، ولكن نفسه هي التي كانت تتعثر في هذه الحياة الجديدة التي يستقبلها ولا يعرف كيف يلقاها ، ولا كيف يحمل أعباءها ، ولا كيف ينفذ من مشكلاتها .

ويبلغ الرفاق مدينة مونبلييه التي أمرتهم الجامعة أن يطلبوا العلم فيها عامهم ذاك ولا يذهبوا الى باريس حتى يؤذن لهم في الذهاب اليها ، وهم يبلغون تلك المدينة مع الليل وهم يجهلون من أمرها كل شيء . ولكن رفيقهم ذاك الذي نيّف على الاربعين وحلب الدهر أشطره كما كان يقول ، وجعل نفسه رئيساً لهم بحكم السن ، يقودهم الى فندق حقير فقير كسفينتهم تلك التي

عبرت بهم البحر ، فاذا استقروا في هذا الفندق وعبث بهم البرد أقبل الدرعمي متضاحكاً وهو يقول للفتى :

أوتل مثل وجـــه الكلب لكن
لخاطـــر سلطن اصبر شـــويه

وسلطن هذا هو اسم الرفيق سلطان الذي قادهم الى الفندق ، ولكن ضرورة الشعر حذفت ألفه ليستقيم الوزن ، وما أكثر ما تحذف ضرورات الشعر من الحروف ! ...

الفصل الحادي عشر

الفتى في فرنسا ...

واستقبل الفتى حياته في مدينة مونبلييه سعيداً بها الى أقصى ما تبلغ السعادة ، راضياً عنها كأحسن ما يكون الرضى . فقد حقق أملاً لم يكن يقدر انه سيحققه في يوم من الأيام .

وكان يكفيه أن يفكر في صباه ذلك البائس الذي قضاه متردداً بين الأزهر وحوش عطا ، تشقى نفسه في الأزهر ، ويشقى جسمه ونفسه في حوش عطا ، حياة مادية ضيقة عسيرة كأقسى ما يكون الضيق والعسر . وحياة عقلية مجدبة فقيرة كأشد ما يكون الاجداب والفقر . ونفس مضيّعة بين عسر الحياة المادية وفقر الحياة المعنوية . ثم يوازن بين حياته تلك وبين الحياة الجديدة التي أخذ يحياها في هذه المدينة الفرنسية ، لا يحس جوعاً ولا حرماناً ، يُحمَلُ اليه فطوره اذا اصبح ناعماً ليناً لا خشونة فيه ولا غلظ . فاذا جاءت أوقات الطعام في وسط النهار وفي آخره ، وجد في اختلاف الالوان وتنوعها ما يذكره بطعامه ذاك المتشابه حين كان يغمس خبزه في عسله ذاك الاسود مصبحاً وممسياً ، وحين كان يحب أن يتخفف من طعامه ذاك أحياناً ويخالف عن حلاوته البغيضة الى

شيء آخر فلا يجد الا ذلك الطعام الغليظ الذي كان الازهريون يعيشون عليه في تلك الأيـــام . فإذا أحب أن يتفكه فلا منصرف له عن البليلة في الصباح والتين الغارق في الماء اذا كان المساء أو الضحى . وأين ذلك الطعام الغليظ من هذه الألوان المترفة الرقيقة التي كانت تعرض عليه في غذائه وعشائه في غير تقتير ولاتضييق وفي كثير من الحاح الخدم وأصحاب الفندق عليه في أن يصيب منها أكثر مما أصاب .

ويذهب الى الجامعة فيسمع فيها ما شاء الله أن يسمع من دروس الادب والتاريخ واللغة الفرنسية ، لا يسمع درساً الا أحس أنه قد علم ما لم يكن يعلم ، وأضاف الى علمه القديم علماً جديداً ؛ وهو على قلة حظه من احسان اللغة الفرنسية لم يكن يجد كثيراً من المشقة ولا يبذل كثيراً من الجهد ليفهم ما كان الاساتذة يلقون من الدروس فهماً يغنيه ويرضيه . كان الفتى يوازن بين حياته هذه الجديدة وحياته تلك القديمة ، ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم ، فيرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظاً من النجح والتوفيق ، وهو مع ذلك لم يكن ميسراً عليه في الرزق ، وانما كان عليه أن يدبر مرتبه ذاك الذي لم يكن يتجاوز اثني عشر جنيهاً لينفق منه على نفسه وعلى أخيه . وقد تهيأ له ما أراد من ذلك في غير تكلف ولا عناء . كانت الحياة الفرنسية في تلك الايام هينة ميسرة تتيح لفتيين أجنبيين مثله ومثل أخيه أن يعيشا بهذا المرتب الضئيل عيشة راضية حين تقاس الى ما كانا يلقيان في مصر من قسوة الحياة وشظفها .

ثم لم يلبث الفتى أن فكر في أنه لم يعبر البحر الى فرنسا ليتردد بين الفندق والجامعة ، وانما أقبل الى هذا البلد الغريب ليدرس ويحصل ويجوز الامتحان ويظفر بالدرجات الجامعية التي لم يظفر بها أحد قبله من مواطنيه . فلم يكن له بد من أن يظفر بدرجة الليسانس ، ولم يكن الى الظفر بتلك الدرجة سبيل في تلك الايام اذا لم يحسن الطالب لغتين لم يكن من احسانهما بد . احداهما لغة الدرس وهي اللغة الفرنسية التي كان الفتى قد أخذ منها بحظ يسير . والاخرى لغة قديمة كان الفتى يسمع عنها ولا يحققها ولا يعرف الى العلم بها سبيلا وهي اللغة اللاتينية .

* * *

وقد أخذ الفتى يتهيأ لاتقان الفرنسية من جهة ، وتعلم اللاتينية من جهة أخرى . فالتمس لنفسه معلماً خاصاً يعينه من ذلك على ما كان يريد . وقد جعل رفاقه يبحثون له عن المعلم الذي يلائمه حتى قيل لهم ان صاحبكم مكفوف وليس له بد من أن يتعلم كتابة المكفوفين وقراءتهم ليستطيع أن يعتمد على نفسه في تحصيل ما يريد أن يحصل من العلم .

ثم قيل لهم ان في تلك المدرسة من مدارس المكفوفين أستاذاً ضريراً قد يعين صاحبكم على حاجته . فسعوا الى هذا الاستاذ وقدموا اليه صاحبهم ، وأعلن الاستاذ اليهم انه زعيم بأن يعلم رفيقهم الكتابة والقراءة الفرنسية واللاتينية جميعاً ، ولم يطلب على هذا الا أجراً ضئيلاً في نفسه ، ولكنه كان ثقيلاً على هذين الاخوين اللذين كانا يعيشان بمرتب شخص واحد .

وقد قبل الفتى مع ذلك أن يشق على نفسه وعلى أخيه ، وأن يؤدي الى الاستاذ أجره الذي طلبه . وكتب الى الجامعة يستعينها فلم تبخل عليه بالعون وقامت عنه بأداء هذا الاجر .

وأقبل الفتى على الكتابة البارزة يتعلمها فلم يلبث أن أحسنها ، ولكنه عندما حاول أن ينتفع بها في درسه لم يجد الى الانتفاع بها سبيلاً . فلم تكن الكتب التي كان يحتاج الى قراءتها قد طبعت على هذه الطريقة الخاصة . وكان ربما أتيح له الكتاب المطبوع على هذه الطريقة ، فلا يكاد يأخذ في قراءته حتى يضيق بهذه القراءة أشد الضيق ، وينفر منها أعظم النفور . فهو قد تعود أن يأخذ العلم بأذنيه لا بأصابعه ، وهو من أجل ذلك يجد المشقة كل المشقة في تتبع هذه النقط البارزة حتى يؤلف منها الكلمة ، ثم يؤلف من الكلمة وأمثالها جملة ، ثم يؤلف من هذه الجملة وأمثالها كلاماً يمكن أن يعمل فيه عقله وفهمه وبصيرته ؛ واذا هو يجد في ذلك عسراً أي عسر ، ويسأم ذلك أشد السأم وأقساه ، ويرى أنه يستطيع أن يحصل من طريق أذنيه في اللحظات القصيرة ما يحتاج الى الوقت الطويل والملل الثقيل ليحصله من طريق أصابعه . وهو يعدل عن الكتابة البارزة وعن القراءة بالاصابع الى طريقته التي ألفها الا في درس اللاتينية . فقد كان حريصاً على أن يتعلم هذه اللغة في أناة ومهل ، وكانت هذه الطريقة في الكتابة والقراءة تواتيه وتلائم ابتداره درس هذه اللغة وحاجته الى الريث والاناة .

على أنه لم يكد يتقدم في درس اللاتينية قليلاً حتى سئم القراءة

بأصابعه ، وآثر الاستماع على تلمس الحروف ، وأحس الحاجة الى قارىء يقرأ عليه ما يريد في اللاتينية والفرنسية جميعاً . ولم يستغن عن أستاذه ذاك الذي كان يعلمه هاتين اللغتين . واستحى أن يطلب الى الجامعة عوناً جديداً . فقتّر على نفسه أشد التقتير وأقساه ، وعاش عيشة فيها شيء من غلظة وخشونة ، ولكنها كانت على كل حال خيراً من حياته التي ألفها في مصر .

* * *

على أن الايام أبت الا أن تشق عليه وترهقه من أمره عسرا . فقد كان يعيش مع أخيه عيشة راضية على ما فيها من قسوة ومشقة .. وكانا يدبران أمرهما تدبيراً ملائماً لطاقتهما المالية ، ولكنهما لم يلبثا ان اختلفا واشتد بينهما الاختلاف ، حتى أصبحت حياتهما خصاماً متصلاً وشقاء ملحاً ، وحتى اضطرا الى أن يفترقا .. يسكن كل واحد منهما في منزل غير الذي يسكنه أخوه ويلتقيان بين حين وحين . وقد اضطرهما ذلك الى المبالغة في التقتير على أنفسهما . فليست النفقات التي يقتضيها افتراقهما في المسكن ، كالنفقات التي كانا يحتملانها حين كانا يسكنان في غرفة واحدة ، ويختلفان الى مائدة واحدة .

وكذلك اشتدت قسوة الحياة على هذين الاخوين الغريبين ، ولكنها لم تنل من صبرهما ولم تصرفهما عن جدّهما في الدرس والتحصيل . ولم تكن حياة الفتى على ذلك النحو مبغضة اليه ، ولا ثقيلة عليه من جميع وجوهها ، وانما كانت مزاجاً من الجد

الصارم والهزل الباسم. يلتقيان أحياناً فيحيا الفتى حياة ليست حلوة ولا مرة، ولكنها تمرّ في أول النهار وتحلو في آخره حين كان الفتى يلقى رفاقه ويسمع لاحاديثهم، ويقضي بينهم فيما كان يعرض لهم من المشكلات، وما اكثر ما كان يعرض لهم من المشكلات، ومن مشكلات الحب والغرام خاصة!...

وكيف تريد فتية من المصريين على أن يعيشوا في فرنسا ويختلفوا الى القهوات والاندية وبعض ما يقام من الحفلات دون أن يداعبوا الحب أو يداعبهم الحب، ودون أن تقسو عليهم دعابة الحب بين حين وحين؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يمنع صديقين من أن تروقهما فتاة واحدة، واذا هما يلتمسان الى لقائها الوسيلة. فاذا أتيح لهما هذا اللقاء ابتغيا عندها مواقع الرضى، ثم لا يلبث أن يكون بينهما التنافس، ثم الخصومة، ثم التلاحي، ثم الفرقة. أيهما ظفر عند صاحبتهما بالرضى فهو عدوّ لصاحبه الذي أخلفه الظن، وكذّبه الامل ولم يقع من نفس الحسناء ما كان يرجو من موقع الرضى والارتياح. ولا تلبث هذه الخصومة بين الرفيقين أن تتجاوز الحب الى غيره من ألوان الحياة التي كانا يتعاونان عليها ويشتركان فيها. واذا صاحبنا يصبح قاضياً بين رفاقه في شؤون الحب وليس له أرب فيه ولا سبيل اليه. وأنى له بشيء من ذلك وهو المكفوف الذي لا يحسن شيئاً حتى يعينه عليه معين وهو لا يرى وجوه الحسان، ولا يعرف كيف يتحدث اليهن أو كيف يبتغي الى رضاهن الوسائل. فهو يغدو على الجامعة مصبحاً، فاذا راح الى منزله آخر النهار لم يبرحه حتى يسفر له صبح الغد.

والرفاق يلمّون به في آخر النهار وأول الليل ، فيختصمون بين يديه ويتخذونه حكماً بينهم ، وهو يصلح بين المختصمين مرة ويقضي لبعضهم على بعض مرة .

* * *

ولكن الليل لا يكاد يتقدم حتّى يتفرق عنه رفاقه جميعاً ، واذا هو يخلو الى نفسه هذه الخلوة المرة التي لا يجد عليها معيناً . قد جلس وحده في غرفته تداعب نفسه الخواطر المختلفة الكثيرة . فيها ما يسرّ ، وفيها ما يسوء . فيها ما يحيي الامل ، وفيها ما يملأ القلب يأساً وقنوطاً .

وما يزال الفتى جالساً في مجلسه ذاك من غرفته تعبث بـه خواطره هذه المختلفة لا يسأل عنه سائل ولا يلمّ به ملم ، وانما هي الوحدة المطلقة القاسية التي كانت تذكره وحدته في غرفته في حوش عطا ، حين لم يكن يؤنسه الا صوت الصمت وما كان يتردد فيه أحياناً من ازيز بعض الحشرات .

وربما أسرفت عليه القسوة حتّى تنتهي به الى أقصاها فيمتنع عليه النوم ، ويأبى الارق الا أن يكون له حليفاً . وانه لفي ذلك واذا بابه يطرق وقد كاد الليل يبلغ ثلثيه . فاذا أذن للطارق بالدخول فتح الباب وأقبل عليه أحد رفاقه وقد أخذ من عبث الشباب بأعظم حظ ممكن ، وهو لا يريد أن يأوي الى سريره حتّى يتحـدث ببعض عبثه الى صاحبه . فاذا فرغ من حديثه وانصرف وترك صاحبنا وقد انتهى به الحزن والضيق الى غايتهما ، واذا هو يقضي

ليلة بيضاء لا يذوق فيها للنوم طعماً . فاذا أصبح غدا على حياة فاترة لا خير فيها لعقله ولا لجسمه .

وهو على ذلك وعلى ضيق ذات يده وعلى المشقة الشاقة التي كان يلقاها في الاختلاف الى الجامعة والانتفاع بما كان يسمع من الدروس ، راضٍ عن حياته كل الرضى ، مطمئن اليهـــا أشد الاطمئنان لا يتمنى الا أن يمضي فيها حتى ينتهي الى ما قدر له من غاية وهو واثق بأنه سيبلغ من هذه الحياة ما يريد ، سيحسن الفرنسية ، بل هو قد أخذ يحسنها ويطلق بها لسانه في غير مشقة ، وسيتعلم اللاتينية ، وسيتهيأ للامتحان . ومن يدري لعله أن يكون أول طالب مصري يظفر في يوم من الأيام بدرجة الليسانس في الآداب .

* * *

وانه لفي هذه الحياة الحلوة المرة القاسية اللينة التي يحبها أحياناً كأشد ما يكون الحب ، ويضيق بها أحياناً أخرى كأشد ما يكون الضيق ، واذا الحياة تبتسم له فجأة في يوم من أيام الربيع ابتسامة تغيّر حياته كلها تغييراً .

واذا هو لا يعرف الوحدة ولا يجد الوحشة حين يخلو الى نفسه اذا أظلم الليل ، وكيف تجد الوحدة أو الوحشة الى نفسه سبيلاً ، وكيف تبلغه تلك الخواطر التي كانت تؤذيه وتضنيه وتؤرق ليله وفي نفسه صوت عذب رفيق يشيع فيه البر والحنان ويقرأ عليه هذا الأثر أو ذاك من روائع الأدب الفرنسي القديم ؟

* * *

يرحم الله أبا العلاء ، لقد ملأ نفس الفتى ضيقاً بالحياة وبغضاً لها ، وأيأسه من الخير ، وألقى في روعه أن الحياة جهد كلها ومشقة كلها ، وعناء كلها . واذا هذا الصوت يذود عن نفس الفتى كل ما القى فيها أبو العلاء من ظلمة التشاؤم واليأس والقنوط ، كأنه تلك الشمس التي أقبلت في ذلك اليوم من أيام الربيع ، فجلت عن المدينة ما كان قد اطبق عليها من ذلك السحاب الذي كان بعضه يركب بعضا ، والذي كان يقصف ويعصف حتى ملأ المدينة أو كاد يملؤها اشفاقاً وروعاً .

وإذا المدينة تصبح كلها اشراقاً ونوراً .

سمع الفتى ذلك الصوت يقرأ عليه شيئاً من شعر راسين ذات يوم . فأحس كأنه خلق خلقاً جديداً ، ومنذ تلك الساعة التي سمع فيها ذلك الصوت لم يعرف اليأس الى نفسه سبيلا .

ولم يعرف الفتى انه أحب الحياة قط كما أحبها في الثامن عشر من شهر مايو في ذلك العام .

ولم يعرف أنه أقبل على الدرس كما أقبل عليه منذ ذلك اليوم . ولم يعرف انه انتفع بالاختلاف الى الجامعة والقراءة في الكتب كما جعل ينتفع بهما منذ ذلك اليوم أيضاً .. حتى حين انقطع عنه ذلك الصوت العذب البرّ الرفيق لمقدم الصيف .

فقد كان الصوت يصحبه دائماً لا يكاد يخلو الى نفسه في ليل أو نهار الا سمعه يقرأ عليه هذا الكتاب أو ذاك ، في تلك النبرات التي كانت تسبق الى قلبه فتملؤه رضى وغبطة وسروراً .

وانه لفي هذه السعادة المتصلة ، واذا صاحبه الدرعمي يقبل عليه ذات صباح مظلم الوجه والنفس والصوت ، فينبئه بأن كتاباً قد وصل اليه من الجامعة تنبئه فيه بأن طلاب البعثة جميعاً يجب أن يعودوا الى مصر وأن يأخذوا اليها أول سفينة تتاح لهم بعد قراءة هذا الدعاء .

وقد سمع الفتى حديث صاحبه فأغرق في ذهول عميق ، ثم أفاق بعد وقت لم يدر أقصر أم طـال ، واذا هو يرى آماله العذاب قد استحالت في أقصر لحظة الى آمـال كذاب ، ويرى حياته المشرقة الباسمة الحلوة قد أصبحت ظلمة عابسة مرّة ممضة . ولكنه على ذلك لم يستسلم لليأس ، وإنما أخذ يتعلق بالوهم فيبرق الى من كان يعرف من الصديق القادرين على أن يسعوا له في الخير عند الجامعة أو عند السلطان . ويبرق الى القصر وينتظر ما يعود به البرق عليه ، واذا البرق لا يعود عليه الا بالالحاح في الدعاء أن يعود الى مصر في غير ابطـاء .

ويرى الفتّى نفسه ذات يوم من شهر سبتمبر يسعى مع رفيقه الدرعمي الى السفينة ، وكلاهما محزون كاسف البال كأنه لايسعى للعودة الى الوطن ، وإنمـا يساق إلى الموت .

الفصل الثاني عشر

الصَّوْتُ العَذْبُ . . .

وكانت أيام السفينة الستة طوالاً ثقالاً قد ألقى عليها الحزن غشاء شاحباً بغيضاً . فلم يجد الصاحبان فيها للذة السفر وراحته طعماً ، وإنما كان الهمّ يصبحهما ويمسيهما ، وكانت خيبة الأمل حديثهما في النهار حين يلتقيان ، وحديث نفسيهما في الليل حين يفترقان . وما لهما لا يشقيان بهذه العودة المفاجئة ، واحدهما قد أنفق في باريس أعواماً طوالا ثم لم يحقق من آماله شيئاً وإنما همّ ولم يفعـــل ، فتعلم الفرنسية واختلف الى الدروس وأخـــذ يتهيأ لاعداد رسالته التي ينال بها درجة الدكتوراه ، واذا الحرب تردّه عن ذلك رداً . فاذا عاد الى فرنسا واستأنف ما كان فيه من استعداد للرسالة والامتحان ردّته الازمة المالية التي أدركت الجامعة الى وطنه خائباً فارغ اليدين لم يصنع شيئاً ولم يظفر بشيء .

ولو قد التمس لنفسه عملاً حين تخرّج في دار العلوم ولم يتكلف مــا تكلف من السفر والغربة ، لكان في ذلك الوقت معلماً في هذه المدرسة أو تلك من مدارس الدولة . ولكنه يرى نفسه ضائعاً لا يكاد يدنو من الغاية حتى يصد عنها صداً . تصده

الحرب مرة وتصده الازمة المالية مرة اخرى ، وهو يعود الى مصر ليعيش فيها فارغاً لا يدري مـــاذا يعمل ولا يعرف كيف يكسب القوت .

واما الآخر فقد جدّ وكدّ واحتمل المشقة والعناد ، وداعب الاحلام والآمال ، حتّى اذا أشرف على البعثة ولم يكن يقدر انه سيشرف عليها ردّه عنها اعلان الحرب ، فعاش اشهراً عيالا على أبيه وأخيه وذاق مرارة الحياة التي لاتغني عنه وعن غيره شيئاً . ثم اتيحت له البعثة فأقبل على عمله مغتبطاً سعيداً يكاد يخرجه النشاط من اهابه . وقد حاول من أمور الدرس ما اتيح له فيه كثير من التوفيق ، حتّى ظن أنه بالغٌ ما يريد ، ثم عرض له اثناء اقامته في فرنسا ما أحيا في نفسه آمالاً لم تكن تخطر له ببال . فهو قد عرف انه يستطيع ان يكون كغيره من الناس بل خيراً من كثير من الناس يحيا حياة فيها رضى وغبطة وفيها نعمة وبهجة . وفيها سكون الى هذه الرحمة التي كان قد استيأس منها والتي كان أبو العلاء قد القى في روعه انه لن يذوقها ما عاش . واذا الايام تدنيه منها أو تدنيها منه .

وانه لفي حياته تلك الراضية الناعمة على ما كان فيها من خشونة وعسر ، واذا الجامعة تدعوه الى مصر ليعود اليها كما خرج منها كأنه لم يداعب الامل الا ليتجرع مرارة اليأس كأبغض ما تكون مذاقاً .

وهو قد عرف التبطل والفراغ في أشهره تلك التي قضاها في مصر بعد أن أعلنت الحرب ، وهو يعود ليلقى التبطل والفراغ

مرة أخرى في مصر .

أف لهما من رفيقين بغيضين ! ولقد كان يقطع الأمد بين مونبلييه ومارسيليا أثناء ليلته تلك الثقيلة وليس في نفسه الا شيء واحد ، هو هذا الصوت العذب الذي طالما قرأ عليه آيات الأدب الفرنسي وهو الآن يناجيه في حزن أليم ... واذن فلن نلتقي بعد أن ينقضي الصيف !

وقد صحبه هذا الصوت أيام السفينة يناجيه مناجاة اليأس مرةً ، ومناجاة الأمل مرة أخرى ، يشفق عليه من الاحداث ويمنّيه الانتصار عليها والخروج منها ، ويتحدث اليه بأنها الغمرات ثم ينجلين . وبأن لكل أزمة غاية وبعد كل حرج فرجاً ، وهو مضطرب بين هذه الابتسامات المضيئة الخاطفة التي لا تكاد تعرض له حتى تنصرف عنه ، وهذا الحزن الجاثم المقيم الذي لا يفارقه الا ريثما يعود اليه !

وتبلغ السفينة ثغر الاسكندرية واذا الوطن زاهد في هذين الصاحبين البائسين لا يريد أن يلقاهما ولا أن يضمّهما بين ذراعيه ، فقد كانت الحرب قائمة وكانت قيودها شدادا ثقالا . وكان أمر مصر الى غير أهلها ، وكان أمر الثغور خاصة ضيقاً حرجاً قد فُرضت عليه رقابة أي رقابة ، فلا تكاد السفينة تستقر في مرساها ولا يكاد الصاحبان يحاولان الهبوط بها حتى يُرَدّا عن ذلك رداً شديداً ، فلم يكن يكفي أن يصل المصري الى وطنه ليدخله ، وإنما كان يجب أن ينتظر ويطول انتظاره حتى يؤذن له بالدخول .
وقد انتظر الصاحبان حتى تستأذن السلطة في السماح لهما بترك

السفينة والنزول الى أرض الوطن ، وأبرقا الى الجامعة والى من يعرفان من الصديق يتعجلان هذا الاذن . ولكن الأمور لم تكن تجري في يسر واسماح ، واذا هما يقيمان في السفينة يوماً ويوماً . وصنع الله لهما في هذين اليومين أن كانا فيهما مضطربين أشد الاضطراب ، يريدان أن تفتح لهما أبواب الوطن ويتمنيان في أعماق ضمائرهما أن تظل مغلقة وأن تعود بهما السفينة الى مارسيليا ...

ولكن ماذا يصنعان في مارسيليا ؟

وكيف يعيشان في فرنسا ؟.

بل كيف يعيشان في السفينة نفسها اثناء عودتهما الى مارسيليا ؟ ومن لهما بثمن هذه العودة ؟

ولكن أبواب الوطن تفتح لهما بعد لأي ، والوطن يتلقاهما كئيباً فيضيف الى حزنهما حزناً والى شقائهما شقاء .

وقد أقـــام صاحبنا في القاهرة قريباً من ثلاثة أشهر لايعرف أنه شقي في حياته كلها كما شقي فيها ، ولا أنه سعد في حياته كلها كما سعد فيها . ولكن شقاءه كان طويلاً ملحاً وسعادته كانت سريعة خاطفة . كان يشقى بالتبطل والفراغ والبؤس ، وكان يسعد بذلك الصوت العذب الذي كان يناجيـــه بين حين وحين ، وربما أيقظه من نومه مفزعاً ، مسروراً مع ذلك بهذا الفزع . وكان يسعد بهذه الرسائل التي كانت تصل اليه بين حين وحين فيها كثير من الامل المشفق ، وكثير من التشجيع عـــلى احتمال النائبات ، وربما اشتملت بعض هذه الرسائل على زهرة

قد جففت وأرسلت اليه ليحملها كما تُحمَل التمائم ولتذكرّه إن عرَضَ له النسيان .

وشهد الله ما عرض له النسيان قط ...

في هذه الأشهر الثلاثة شكا الفتّى كما لم يشك قط في حياته ، شكا شعراً ونثراً حتّى لامه في ذلك بعض الصديق ، وقال له قائلهم أين الصبر وأين الاجمال ، وأين الشجاعة والاحتمال ، وأين ذهب عنك الحيـــاء حتّى كتبت في بعض الصحف هذين البيتين :

الحمد لله عـــلى أنـــني
قد صرت من دهري الى شرّ حال

لا املك القوت ولا ابتغي
ما فاتني منه بذلّ السؤال

وقال له قائلهم أيضاً : أملك عليك نفسك ، فانك ان تكن تشكو الزمان الى الزمان فهو لن يسمع لك ، لأن الزمان أصمّ غبي غافل ذاهل لا يعرف بنيه ولا يسمع لهم ؛ وان كنت تشكو الزمان الى الناس ، فالناس مشغولون عنك بأنفسهم ، وهم بين رجلين عاطف عليك ، ولكنه لا يقدر لك على شيء ، وقادر على معونتك ، ولكنه لا يحفل بك ولا يلقي اليك بالاً ، ولو قد أهدى اليك العون لما قبلته منه فما أرى أنك ترضى لنفسك هذا الهوان .

ولكن صاحبنا لم يقلع عن شكايته لانه لم يكن يشكو الزمان

الى الزمان ، ولا يشكو الزمان الى الناس ولا ينتظر من الزمان ولا من الناس شيئاً ، وانما كانت الشكوى غناء نفسه المحزونة وباله الكئيب .

في تلك الايام كان عبد الحميد حمدي رحمه الله يصدر جريدة « السفور » في كل أسبوع ، ويطلب اليه والى غيره من الصديق أن يعينوه بالكتابة فيها ، فكان صاحبنا يرسل اليه حديث نفسه ذلك المرّ .

وكان يتردد على الجامعة ويسمع بعض دروسها ، فسمع ذات ذات يوم درس الاستاذ المهدي رحمه الله ، وكان له مع الاستاذ تلك الخطوب التي رويت في حديث مضى والتي كادت تفصله من بعثة الجامعة لولا ان اعضاء مجلس الادارة كانوا أفقه وأذكى من أن يستجيبوا للاستاذ رحمه الله .

وفي تلك الايام طلب عبد الحميد حمدي الى الفتى ان ينشر كتابه عن أبي العلاء ، فاستجاب الفتى لذلك سعيداً محبوراً . وجد في ذلك تسلية لبعض همه وشغلاً لبعض وقته وارضاء لغروره الذي كان في حاجة الى بعض الرضى بعد ان اسرفت الايام في القسوة عليه . وأي رضى للغرور أعجب اليه وآثر في نفسه من ان يظهر له كتاب في ايامه تلك الشداد ؟

وقد نشر الكتاب ، ولكن صاحبنا لم يفد من نشره مالاً قليلاً أو كثيراً ، ولم يفد منه رضى قليلاً او كثيرا . فقد اعجل عن

هذا كله ، دعاه علوي باشا ذات يوم وأنبأه في رفق به وعطف عليه لم ينسهما قط ان ازمة الجامعة قد انفرجت وان عليه ان يتأهب للسفر ، فسيبحر مع صاحبه الدرعمي وغيره من اعضاء البعثة بعد ايـــام .

ثم انبأته الجامعة بعد ذلك بأنه سيتشرف مع زملائه أعضاء البعثة بلقاء السلطان حسين كامل .

وقد أتيح لهم هذا اللقاء في ضحى يوم من الايام ، ذهبوا الى القصر يقودهم علوي باشا ، وأدخلوا على السلطان فلقيهم لقاء حسناً ، والقى على الفتى سؤالاً لم يعرف كيف يردّ عليه .

سأله : — من اول من رفع شأن التعليم في مصر ؟

فوجم الفتى ولم يرجع جواباً .

قال السلطان وهو يضرب على كتفه وينطق في لهجة تركية :

— جنة مكان اسماعيل باشا .

ثم صرف الرفاق ، ولم يكادوا يخرجون من غرفة الاستقبال حتى انبأهم منبيء بان السلطان قد تفضل واجاز كل واحد منهم بخمسين جنيهاً ..

وخلص الرفاق بعد أن خرجوا من القصر نجيا : فقرروا ان يهدوا جوائزهم الى الجامعة معونة لها واعترافاً ببعض ما قدّمت اليهم من جميل . وكانوا بهذا القرار سعداء حقاً كأنما اهدوا الى

انفسهم خيراً عظيماً ومعروفاً جزيلاً .

وهم يسعون الى علوي باشا رحمه الله ليرفعوا اليه قرارهم ذاك منتظرين ان يسمعوا منه رضى عنهم وثناء عليهم وتشجيعاً لهم على ان يكونوا اخياراً . ولكن علوي باشا يلقاهم ويسمع منهم ثم يغرق في ضحك متصل ، ثم يقول لهم :

ـ ما هذا الكلام الفارغ ! خذوا اموالكم واذهبوا ، فاعبثوا بها في باريس ، ايها الحمقى ... فمن حقكم أن ترفهوا على انفسكم اياماً بعدما لقيتم في هذه الاشهر من عناء طويل ثقيل ! !

ثم يسكت حيناً ثم يقول :

ـ فاذا أصبحتم اغنياء فاستأنفوا ما أقدمتم عليه من خير . وما اراكم تفعلون ، يومئذ فستعرفون قدر المال .

وانصرف الرفاق عن علوي باشا لا يعرفون أكانوا راضين لانه قد حفظ عليهم أموالهم لينفقوها في باريس .. ام كانوا ساخطين لانه لم يقبل منهم تبرعهم ذاك الذي أقدموا عليه مخلصين ؟

ويفد الرفاق صباح يوم الى الجامعة ليأخذوا منها تذاكر السفر ، ولكن صاحبنا يسمع ما يؤذيه أشد الاذى وأمضّه .

فقد أبت شركة السياحة أن تصرف له تذكرة السفر الا بإذن خاص من المفوضية الايطالية ، فقد كان الرفاق سينزلون في نابولي ، وكانت الشركة تخشى الا يؤذن لصاحبنا بالنزول في ايطاليا لانه ضرير ولا يحسن السعي في اكتساب الرزق .

وظنّ الفتى ، وفي قلبه حزن اي حزن ولوعة اي لوعة ، انه سيُردُّ عن السفر مرة ثالثة . ولكن الاستاذ لطفي السيد والامير احمد فؤاد ييسران له سفره ويصبح من غد فيركب القطار الى بور سعيد ويصعد الى سفينة هولندية تعبر به البحر الى نابولي .

وما اعظم الفرق بين سفره هذا الى نابولي وعودته تلك الى الاسكندرية ! كان لا يملك نفسه من الفرح والمرح والسرور . وكان كل شيء يضحكه ويغريه بالبهجة والاغتباط حتّى حين اقبل الخادم عليه وعلى صاحبه الدرعمي بعد أن تقدم الليل قليلاً فقال لهما :

— اذا سمعتما الجرس فأسرعا الى اتخاذ منطقة النجاة ثم اسرعا الى الزورق المخصص لكما .

قال الدرعمي :

— وفيم هذا كله ؟

قال الخادم :

— فانك تعلم ان الحرب قائمة ، واننا لا نأمن من ان تعرض لنا في الطريق احدى الغواصات .

ثم انصرف .

وأخذ صاحبنا الدرعمي يُعول شاكياً باكياً ذاكراً امه التي لن يراها ولن تراه ، والفتى مغرق في ضحك لا يكاد ينقضي .

ولم تعرض للسفينة غواصة ، ولم يلق المسافرون كيداً ، وانما

بلغوا مدينـــة نابولي ذات صباح ؛ ولم يكادوا يطأون الارض الايطالية حتى ألحّ صاحبنا على صديقه الدرعمي في الاسراع الى مكتب البريد .

وهناك وجد رسالتين كانتا تنتظرانه من باريس . فقرأهما عليه صديقه مرة ومرة ، فلما طلب منه قراءتهما للمرة الثالثة ، قال له منكراً :

ـ اليك عني ، فان في مدينة نابولي ما هو أنفع لنا وأجدى علينا من ترديد هذا الكلام الذي حفظناه عن ظهر قلب ! ..

وانفقا في نابولي يوماً سعيداً ، حتى اذا كان الليل ، ركبـــا القطار الى باريس .

الفصل الثالث عشر

في الحي اللاتيني . . .

وكان صاحبنا مقسّم النفس بين السعادة المشرقة والشقاء المظلم أثناء سفره هذا الطويل منذ ترك القاهرة الى ان بلغ باريس .

كان سعيداً لان الغمرة قد انجلت عنه فاتصل من اقامته في فرنسا ما انقطع ، واذن الله له في أن يتم ما بدأ من الدرس ، ويحاول تحقيق ما كان يداعب من الآمال ، ويسمع من جديد ذلك الصوت العذب يقرأ عليه روائع الادب الفرنسي وأوليات التاريخ اليوناني الروماني ويعينه على درس اللاتينية .

وليس هذا كله بالشيء القليل ، وبعض هذا كان جديراً ان يُنسيه كل ما لقي من جهد ، وكل ما احتمل من عناء . ولكنه كان يحمل في نفسه ينبوعاً من ينابيع الشقاء لا سبيل الى ان يغيض أو ينضب الا يوم يغيض ينبوع حياته نفسها ، وهو هذه الآفة التي امتحن بها في أول الصبا ، شقي بها صبياً ، وشقي بها في أول الشباب ، وأتاحت له تجاربه بين حين وحين ان يتسلى عنها ، بل اتاحت له أن يقهرها ويقهر ما أثارت أمــامه من المصاعب

وانشأت له من المشكلات ، ولكنها كانت تأبى الا ان تُظهر له بين حين وحين انها اقوى منه وأمضى من عزمه وأصعب مراساً من كل ما يفتق له ذكاؤه من حيلة .

والغريب من أمره وامرها انها كانت تؤذيه في دخيلة نفسه وأعماق ضميره . كانت تؤذيه سرّاً ولا تجاهره بالخصومة والكيد . لم تكن تمنعه من المضيّ في الدرس ولا من التقدم في التحصيل ، ولا من النجح في الامتحان حين يعرض له الامتحـــان ، وانما كانت أشبه شيء بالشيطان الماكر المسرف في الدهاء الذي يكمن للانسان في بعض الاحناء والاثناء بين وقت ووقت ، ويخلي له الطريق يمضي فيها أمامه قدماً ، لا يلوي على شيء ، ثم يخرج له فجأة من مكمنه ذاك هنا أو هناك ، فيصيبه ببعض الاذى وينثني عنه كأنه لم يعرض له بمكروه بعد أن يكون قد أصاب من قلبه موضع الحس الدقيق والشعور الرقيق ، وفتح له باباً من أبواب العذاب الخفي الاليم .

كان حين ركب السفينة لاول مرة وخرج من زيه ذاك الازهري ودخل في زيه الاوروبي الجديد قد نسي شيئاً واحداً لم يحسب له حساباً لانه لم يكن يخطرله ببال . نسي بصره ذاك المكفوف ، وأجفانه تلك التي كانت تتفتح ولكن على الظلمة المظلمة .

وكان قد قرأ فيما قرأ من أحاديث ابي العلاء انه كان يقول : ان العمى عورة . وفهم هذا كما فهمه أبو العلاء نفسه . فكان يتحرج في كثير من الاشياء أمام المبصرين . وكان يستخفي بطعامه

وشرابه كما كان يستخفي بهما أبو العلاء حتّى لا يظهر المبصرون منه على ما يثير الاشفاق ، والرثاء أو السخرية .

ولم يخطر له قط ان الحياة الحديثة تفرض عليه أن يستر اجفانه تلك التي لا تغني عنه شيئاً ستراً مادياً . وقد انفق أيامه في السفينة الاولى على هذا النحو ، ولكنه لم يلق كيداً ، لأنه لبث تلك الايام قابعاً في غرفته لا يتجاوز بابها مهما تكن الظروف ، الا ان يضطر الى ذلك اضطراراً ، فكان لا يخرج في تلك الحال الا حين يتقدم الليل .

فلما بلغ مارسيليا نبهه رفاقه في تلطف أيّ تلطف ان تقاليد الفرنسيين تقضي على مثله ان يضع على أجفانه تلك غطاء من زجاج أسود . واشتروا له غطاء من تلك الاغطية الزجاجية السود التي يتقي بها المبصرون ضوء الشمس . ولم يؤذه تنبيه الرفاق له الى ذلك وانما رأى فيه تجديداً ، وارتاح اليه بعض الارتياح وكاد يخفى من الشقاء بعينيه المظلمتين ثم لم يفكر في شيء من امرهما ولا من أمر غطائهما ذاك الاسود حتّى عاد الى مصر . وفي مصر لقيه أكبر اخوته رحمه الله . وكان مطربشاً ميالاً الى الترف على ضيق ذات يده وضآلة مرتبه . فلما رآه أنكر غطاء عينيه وقال :

— انه رخيص حقير لا يليق بمثلك .

قال الفتى :

— وما عليّ أن يكون رخيصاً أو حقيراً ، فما ينبغي لمثلي أن يزين بمثل هذا الغطاء .

قال أخوه :

ـ ولكن غطاءك هذا لا يزيد ثمنه على قرشين اثنين وأنا مُهْدٍ اليك خيراً منه استر لعينيك وأليق بمكانتك بين الذين تلقاهم من الرِّفاق والصديق وبين الذين تزورهم من أصحاب المكانة الظاهرة في مصر .

ثم أهدى اليه غطاء ذهبياً وعزم عليه ليتخذنّه مكان ذلك الغطاء الرخيص الحقير .

واستجاب الفتى لاخيه شاكراً رفقه به وعطفه عليه . وأقام في مصر ما أقام يحمل على أنفه واذنيه ذلك الغطاء الذهبي الذي لم يكن رخيصاً ولا حقيراً . ولكن عودته الى اوروبا تتقرر ويغدو على الجامعة ذات يوم فيُقرأ عليه كتابان ، ثم يروح الى منزله فيقرأ عليه كتاب ثالث كان قد حمله البريد صباح ذلك اليوم . وتملأ هذه الكتب الثلاثة قلب صاحبنا غماً وهماً وبغضاً للحياة وضيقاً من الناس وتلقي على نفسه ووجهه غشاء صفيقاً من الكآبة ينكره الرفاق .

وينكره علوي باشا رحمه الله حين يراه وهو يركب القطار ويرى على وجهه هذا الغشاء الكئيب فيهمس في أذنه :

ـ مالي أراك محزوناً كئيباً . وقد كنت أقدر أن أراك اليوم أشد ما تكون ابتهاجاً واشراقاً .. ألا يسرّك أن تعود الى فرنسا ؟

ولم يجب الفتى .. ولكن دمعتين تنحدران على خديه .

واذا علوي باشا يضمه اليه ويقبل جبهته قبلة ملؤها الحنان والبر لم ينسها قط .

ثم يهمس في أذنه :

– أقسم لك يا بني ما عاد صديقك هذا – يريد الدرعمي – الى فرنسا الا من أجلك .. ثق بالله ولا تخف شيئاً ..

ويمضي القطار وقد سكت البكاء عن الفتى . ولكن هذه الكتب الثلاثة لم تسكت عنه ، وانما رافقته اثناء سفره كله ملحّة عليه بالعذاب ، حتى لكانت جديرة أن تبغض اليه نفسه لولا ذلك الصوت العذب الذي كان يناجيه بين حين وحين فيردّ الى نفسه المروعة شيئاً من أمن والى قلبه اليائس شيئاً من أمل .

كان أول هذه الكتب الثلاثة من علوي باشا الى أكبر اخوته ذاك المطربش ينبئه فيه بأن الظروف المالية للجامعة قد فرضت عليها أن تردّ بعثتها الى مصر كارهة ، وانه حريص أشد الحرص على أن يتم أخوه درسه لانه يتوسم فيه خيراً ويكره أن يعود قبل أن يحقق أمله من السفر الى فرنسا ، ويقترح عليه أن ترسل الأسرة نصف المرتب الذي كانت الجامعة تمنحه للفتى ويتبرع هو بالنصف الآخر حتى يبلغ الفتى اربه ويعود وقد ظفر بالدرجات الجامعية الفرنسية ويصبح أستاذاً في الجامعة .

وكان هذا الكتاب جديراً أن يملأ قلب الفتى سروراً ورضى وشكراً لعلوي باشا ، ذلك الذي كان الناس يكثرون الحديث عن

حرصه على المـال واشفاقه من انفاقه في غير موضعه ، وهو يتبرع بمقدار من المال في كل شهر ليعين هذا الفتى المكفوف على أن يبلغ من الدرس في أوروبا ما كان يريد .

نعم ، كان هذا الكتاب جديراً أن يملأ قلب الفتى سروراً وبشراً وشكراً لذلك الرجل الكريم النبيل ، ولكن رد أخيه على هذا الكتاب محا من قلبه كل سرور وكل بشر وان لم يمح منه الشكر الدائم والاعتراف بالفضل والجميل لذلك الرجل الكريم .. كان رد أخيه بشعاً حقاً ، كان يشكر فيه للباشا فضله وكرمه ويعتذر فيه عن الاسرة بأنها فقيرة لا تستطيع أن تستجيب لما تراد عليه . فمرتبه هو ضئيل لا يبلغ العشرين جنيهاً وله بنون ينفق عليهم . ووالده شيخ يعمل على تقدم سنه ، ويتقاضى مرتباً لايزيد على مرتبه هو الا قليلاً ، وله بنون آخرون ينفق على تعليمهم في المدارس ، وكم كانت الاسرة تتمنى أن تعين هذا المسكين على أن يتم درسه لو وجدت الى ذلك سبيلا . وهي تطلب الى الباشا أن يستعين بالسلطان على تعليم هذا البائس ، فان لم يجد الى ذلك سبيلا فليردّه الى مصر وليستبق رعايته له وعطفه عليه .

وكذلك رأى الفتى رجلاً غريباً مستعداً للقيام ببعض نفقته في أوروبا ، وأخاً قريباً كارهاً لبعض ما يطلب اليه من ذلك . والغريب أنه لم ينبىء بأمر هذا التبرع من علوي باشا أباه ولا أخاه الشيخ ، وإنما كتم القصة عن الأسرة كلها . وكان له رحمة الله عذره في هذا الكتمان . فقد كان أبوه يرسل اليه بين حين وحين جنيهات

تبلغ العشرة مرة وتزيد عليها مرة أخرى ويكلفه أن يرسلها الى أخويه في أوروبا معونة لهما على الحياة. فكان يتلقى هذه الجنيهات فاذا استقرّت في يده لم يسهل عليه ارسالها الى أوروبا، وإنما أنفقها في بعض شأنه هو.

أما الكتاب الثالث فكان من أكبر اخوته ذاك يودعه ويتمنى له النجح والتوفيق ويستر د غطاء عينيه الذهبي لانه كان شديد الحاجة اليه.

وما أيسر ما ردّ الفتى ذلك الغطاء الذهبيّ، وعاد الى غطائه ذاك الرخيص الحقير الذي لم يكن ثمنه يزيد على قرشين اثنين. ولكن كتاب أخيه في أمر ذلك الغطاء قد أضاف الى حزنه حزناً، والى ألمه ألماً، وعاد الى فرنسا سعيداً محبوراً، ولكنه مع ذلك كان مزوداً بمقدار من الشقاء غير قليل..

ولم ينس صاحبنا قط انه أُجلس في مكانه من القطار حين بلغ روما وقد انتصف الليل، فلم يبرح مكانه ذاك الى جانب النافذة الا حين بلغ القطار باريس بعد ثلاثين ساعة كاملة لم يتحرك، وانما كان أشبه بمتاع قد ألقي في ذلك الموضع وانتظر حتى يبلغ القطار غايته لينقل الى موضع آخر. لم يتحرك وكان أشبه شيء بالمتاع، ولكنه كان متاعاً مفكراً. يفكر مرة فيما حفظ من قول أبي العلاء ان العمى عورة، وقد فهمه الآن على وجهه وهو يرفع يده بين حين وحين ليتحقق من أن ذلك الغطاء الرخيص الحقير ما زال يستر عينيه اللتين كان يجب أن تسترا.

ويفكر مرة اخرى في الفقر والغنى ، وفي الذين لا يعرفون كيف ينفقون ما يتاح لهم من المال فيكدسونه أكداساً او ينثرونه نثراً فيما لا يجدي عليهم ولا على غيرهم شيئاً ، والذين لا يجدون ما ينفقون ليقيموا اودهم ويستروا جسمهم ويستروا عورة العمى حين تفرض عليهم آفته ، وفي الذين تسمو هممهم الى اكثر من اقامة الاود وستر الجسم وتغطية العينين المظلمتين الى الاغتراب في طلب العلم ثم لا يجدون ايسر ما يحتاجون اليه في ذلك . يبخل عليهم القادرون ويبخل عليهم الاقربون ويهمّ بالاحسان اليهم بعض الأخيار فيردّون عن ذلك ردا .

ويفكر مرة ثالثة في ذلك الصوت العذب الذي كان ربما ألمّ به بين حين وحين مواسياً له مترفقاً به قارئاً عليه هذا الفصل أو ذاك من هذا الكتاب الفرنسي أو ذاك ، منبئاً له بين ذلك بأنه ينتظره في باريس ليقرأ عليه وما اكثر ما سيقرأ عليه ..

لبث في مكانه ذاك لم يبرحه ثلاثين ساعة كاملة ، يعرض الرفاق عليه الطعام حين يأتي موعده فيردّه في رفق ولكن في تصميم ، ويعرض عليه الرفاق الشراب بين وقت ووقت فيرده في رفق وفي تصميم ايضاً . ويريد الرفاق ان يراجعوه في ذلك فيجدون منه اعراضاً وصمتاً ، حتى ظنوا به الظنون ، وحتى يقول له رفيقه الدرعمي :

— ما رأيت كاليوم رجلاً لا يخاف البحر على هوله وعلى ما كان يذكر من امر الغواصات ، فاذا ركب القطار امتلأ قلبه رعباً

ورغب حتى عن الطعام والشراب . أشجاعة حين كان يستحب الجبن ، وجبن حين يصبح الجبان مثيراً للهزء والسخرية ، ما الذي تخاف من القطار ؟ ان قطار اوربا كقطار مصر لا فرق بينهما . ألم تأكل قط حين ركبت القطار في مصر ؟

ثم ينصرف عن هذا الحديث الى غنائه ذاك الذي كان يتغنى به امام بعض الفتيات الفرنسيات فيرضين عنه اشد الرضى ويعجبن به اشد الاعجاب ولا يلقينه الا تمنين عليه ان يعيد عليهن غناءه ذاك ، وكن يسمينه « اعرابي » فيقلن له في الحاح :

ـ غنّ لنا « اعرابي » .

يلغين العين ويلثغن بالراء ويقصرن الالف بينها وبين الباء . ويرتاح صاحبنا الى الحاحهن فيندفع في غنائه على نحو ما يصنع بعض المنشدين في الاذكار :

يا رب صلّ على الهادي
واغفر ما أنت بـه أعلم

اعرابي جـاء الى الهادي
معـه ضبٌ لا يتكلم

يوقع هذا الغناء على نغم مرقص ، وكان الفتى لا يسمعه الا أغرق في ضحك متصل . وكان ربما تمنى عليه بين حين وحين أن يغني له اعرابي ينطقها كما ينطق بها الفتيات الفرنسيات . ولكنه في ذلك القطار لم ينشط حتى لهذا الغناء ، واستيأس منه صديقه الدرعمي ، فخلى بينه وبين ما أحب من السكون والصمت . وأعرض عنه

كما كان يعرض عن متاعه ، يرمقه بين حين وحين ليأمن عليه من السرقة والضياع ولكنه لا يتحدث اليه ولا يعرض عليه شيئاً ، حتى اذا بلغ القطار باريس في أول الضحى أقبل على الفتى متضاحكاً وهو يقول :

– سننقل المتاع الصامت الهامد أولاً ثم ننقل المتاع الحي الناطق بعد ذلك !

وأسلم الامتعة الى الحمالين ثم أقبل على الفتى كأنه يريد أن يحمله ولكن الفتى نهض ومضى معه كأنه لم يسكن ثلاثين ساعة كاملة .

وبعد قليل كان الفتى في غرفة جميلة رائعة بفندق من فنادق الحي اللاتيني ، ولم يكد يستقر في غرفته حتى أصلح من شأنه ، وتهيأ لاستقبال شخص طالما نازعته نفسه الى لقائه منذ شهور ، وطالما أشفق من ألا يلقاه أبداً .

ويطرق الباب طرقاً رفيقاً في آخر الضحى ، فاذا أذن بالدخول دخل عليه شخصان لم يكد يسمع صوت أحدهما حتى انجلى عنه حزنه وانجاب عنه يأسه وانصرف عنه الهم ، كأنه يستأنف حياة جديدة لم يحيها من قبل . ولم لا ؟ لقد بدأ منذ ذلك اليوم حياة ليس بينها وبين حياته الاولى سبب أو صلة .

الفصل الرابع عشر

قصة حب ...

كانت حياة الفتى في باريس حلوة مرة ويسيرة عسيرة ، لم يعرف فيها سعة ولا دعة ، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضى الضمير مالم يعرفه من قبل ومالم ينسه قط. كانت حياته المادية شاقة ، ولكنه احتمل مشقتها في شجاعة ورضى واسماح ، لم يكن مرتبة يتجاوز ثلثمائة من الفرنكات ، كان يدفع ثلثيه في اليوم الاول أو الثاني من كل شهر ، ثمناً لمسكنه وطعامه وشرابه ، وكان يدفع نصف الثلث الذي كان يبقى له أجراً لسيدة كانت تصحبه الى السوربون مصبحاً وممسياً ليسمع فيها دروس التاريخ على اختلافها ، وتقرأ له بين ذلك ما شاء الله من الكتب حين لا يخلو له ذلك الصوت العذب الذي كان قد رتّب له ساعات بعينها في النهار ليقرأ له فيها روائع الادب الفرنسي ، وكان يستبقي فضل مرتبه بعد ذلك لينفق منه على ما يعرض من حاجاته اليومية. فاما أمر كسوته فقد تركه الى الله لان مرتبه لم يكن يتسع له.

وأنفق السنة الاولى من حياته في باريس لا يخرج من بيته

الا الى السوربون . فكان سجيناً أو كالسجين لم يذكر قط أنه خرج من باريس الى ضاحية من ضواحيها في أيام الراحة التي كان رفاقه ينفقون فيها أيام الاحاد ، ولم يذكر قط أنه اختلف الى قهوة من قهوات الحي اللاتيني التي كان رفاقه الجادّون يلمّون بها بين حين وحين ، وكان اكثر الطلاب المصريين يختلفون اليها أكثر مما كانوا يختلفون الى الجامعة ، وانما كان يلزم بيته في أيام الراحة لا يفارقه وربما خلا الى نفسه اليوم كله في غرفته ، إلا أن يلم به ذلك الصوت العذب فيقضي معه ساعة من نهار .

وكان يسمع أنباء المسارح ومعاهد الموسيقى واللهو ، وكانت نفسه ربما نازعته الى بعض هذه المسارح ليسمع هذه القصة أو تلك ، ولكنه كان يردّ نفسه في يسر الى القناعة والرضى . وكيف السبيل الى غير ذلك وهو لا يستطيع أن يذهب وحده الى حيث يريد ولا يستطيع أن يدعو غيره الى مرافقته ، ولا يريد أن يكلف غيره من الناس عناء مرافقته من جهة وتحمل ما تقتضيه هذه المرافقة من النفقات من جهة أخرى ، ولم تكن ذكرى أبي العلاء تفارقه في لحظة من لحظات اليقظة الا أن يشغل عنها بالاستماع الى الدرس أو الى القراءة . كان يذكر دائماً قول أبي العلاء في آخر كتاب من كتبه أنه رجل مستطيع بغيره ، وكان يرى نفسه مستطيعاً بغيره دائماً ، ويحتمل في سبيل ذلك من غيره هذا الذي يتيح له الاستطاعة ألواناً من المشقة وفنوناً من الاذى دون أن ينكر منها شيئاً ؛ فهو مكره على احتمالها اكراهاً ، وهو مخيّر بين أن يقبل ما يكره من غيره من الذين كانوا يعينونه على ما يريد

أو يرفضه فيضطر الى العجز المطلق اضطراراً ، ويضيع حياته في باريس بل حياته كلها في باريس أو غير باريس . وكيف السبيل له الى أن يذهب الى السوربون ليسمع الدروس فيها اذا لم تعنه على ذلك هذه السيدة التي لم يكن من معونتها بدّ ، والتي كانت ترفق به أحياناً وتعنف به أحياناً أخرى ، وربما صحبته من البيت الى الجامعة دون أن تلقي اليه كلمة أو يسمع لها صوتاً ، وانما كانت تعطيه ذراعها وتمضي معه صامتة كأنما كانت تجرّ متاعاً لا ينطق ولا يفكر ، حتى اذا بلغت قاعة الدرس أجلسته الى مائدة من موائدها ، وانصرفت عنه الى خارج القاعة فانتظرت حتى إذا فرغ الاستاذ من درسه أقبلت عليه فأقامته من مجلسه ، ومضت به الى بيته ، حتى اذا انتهت به الى غرفته أدخلته فيها وأغلقت من دونه الباب ، وهي تقول له في صوت خاطف : « الى اللقاء في ساعة كذا من النهار » .

وربما اعتذرت هذه السيدة من مهمتها بعد أن تجد له سيدة أخرى تقوم مقامها ، فكانت هذه السيدة الثانية ثرثارة تؤذيه بحديثها المتصل أكثر مما كانت تلك تؤذيه بصمتها الملحّ ..

على أن عجز الفتى لم يكن مقصوراً على ذهابه الى الجامعة وعودته منها ، وإنما كان عامّاً شاملاً يمس الفتى في أشد الاشياء لزوماً له ، فهو كان يستحي من كل شيء ويكره أن يثير الضحك منه أو الرثاء له والاشفاق عليه . وكان شرطــه حين سكن في البيت الذي أقام فيه ألا يشارك أهله في طعامهم ، وإنما يخلو الى طعامه الذي يحب أن يحمل اليه في غرفته حين يأتي وقته ، فكان

الطعام يحمل اليه ويوضع بين يديه ثم يخلى بينه وبينه فيصيب منه ما يستطيع لا ما يريد. يحسن ذلك أحياناً ويخطئه أحياناً أخرى وربما وضع بين يديه من ألوان الطعام ما لا يحسن تناوله فيتركه مؤثراً العافية، محتملاً في سبيلها ماقد يتعرض له أحياناً من ألم الجوع.

وظل الفتى على هذه الحال شهوراً، ولكن الله رفق به بعد ذلك فأتاح له من كان يهيء له طعامه ويعلمه كيف يرضي منه حاجته.

واتخذ الفتى زيّ الاوروبيين، وما أسرع ما تعلم الدخول فيه والخروج منه، الا شيئاً واحداً لم يحسنه أعواماً طوالاً، وهو هذا الرباط السخيف الذي يديره الناس حول أعناقهم ثم يعقدونه بعد ذلك من أمام عقدة يتأنقون فيها قليلاً أو كثيراً!

لم يفتح الله على صاحبنا بتعلّم هذا الجزء من زيّه، فكان أخوه يدير له هذا الرباط حول عنقه ما عاشا معاً في مونبلييه.

فلما افترقا حار الفتى في أمره، ولكن صديقه الدرعمي أخرجه من هذه الحيرة، واشترى له أربطة مهيأة لا تحتاج الى عناء، وانما تدار حول العنق في يسر ويجمع بين طرفيها في يسر أيضاً، وقد هيّئت عقدتها فليس محتاجاً الى أن يتكلف عقدها وتسويتها والتأنق القليل أو الكثير فيها، ولكنه كان مضطراً الى أن لا يفكر مطلقاً في الملاءمة بين هذه الاربطة وبين ما كان يتخذ من ثياب. وربما اتخذ منها رباطاً واحداً يديره حول عنقه في كل يوم ويمضي

على ذلك الاسابيع المتصلة ، وربما لاحظ هذا الرفيق أو ذاك من رفاقه اختلافاً بين ثوبه ورباط عنقه ، وربما أعانه صديقه الدرعمي فتقدم اليه في أن يغير هذا الرباط واختار له ما يلائم زيّه مما كان عنده من هذا السخف الذي لم يفهم له معنى قط .

وكذلك عاش الفتى عامه الاول أو أكثر هذا العام ، مضطرباً في هذه الحياة المادية المختلطة المعقدة من جميع نواحيها . وربما كان يجد بعض الألم في ذلك ، ولكنه كان يمر به مراً سريعاً لا يقف عنده ولا يفكر فيه الا قليلا . كان يعزّيه عن ذلك اقباله على الدرس ، واحساسه الانتفاع به والتقدم فيه وشعوره بأنه قد أخذ يفهم الفرنسية في غير مشقة ولا عسر ، ويقرأ كتاب التاريخ والادب والفلسفة ، فلا يجد في فهمها جهداً ولا عناء ، قد انقطع لذلك انقطاعاً تاماً فهان عليه منه ما كان صعباً ويسّر له منه ما كان عسيراً .

ولم تكن حياته العقلية أقل تعقيداً والتواء من حياته المادية ، فلم يكد يختلف الى دروس التاريخ والادب في السوربون حتى أحس انه لم يكن قد هيء لها ، وانه لا يفهمها ولا يسيغها كما كان ينبغي أن تفهم وتساغ ، وان درسه الطويل في الازهر وفي الجامعة لم يهيئه للانتفاع بهذه الدروس .

وكانت آماله عراضاً فكان ينبغي أن يتخذ اليها أسبابها ، وأول هذه الاسباب أن يعد نفسه لفهم الدروس التي تلقى في الجامعة ، وسبيل هذا الاعداد ان يقرأ في أقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون ينفقون الاعوام الطوال في درسه بمدارسهم الثانوية .

فليس له بدّ اذن من أن يكون تلميذاً ثانوياً اذا آوى الى بيته ، وطالباً جامعياً اذا اختلف الى دروس السوربون .

وما أسرع ما نظر في برنامج المدارس الثانوية الفرنسية ، واستخلص منه ما يحتاج اليه ، وأزمع أن يدرس منه التاريخ والجغرافيا والفلسفة ، وهذه الخلاصات الموجزة التي كانت تلقى الى التلاميذ عن الآداب الاجنبية الاوروبية قديمها وحديثها . وقد أقبل على ذلك كله في عزم لا يعرف الضعف ، وتصميم لا يعرف التردد ولا الفتور . واستطاع في وقت قصير أن يحصل من هذا كله ما يحصله التلميذ الذي كان يتقدم الى الشهادة الثانوية مطمئناً الى أن الممتحنين لن يردّوه عن هذه الشهادة خزيان أسفاً .

واستقامت له دروسه في السوربون فجعل يفهمها ويسيغها كما كان يفهمها ويسيغها زملاؤه الفرنسيون . واختار لنفسه أستاذاً من أساتذة المدارس الثانوية يعلمه اللغة الفرنسية تعليماً منظماً ، فلم يكن يكفيه أن يفهم اذا سمع ، وأن يفهم الناس عنه اذا تحدث اليهم ، وانما كان يجب عليه أن يحسن العلم بحقائق هذه اللغة ودقائقها وأن يكتبها كتابة لا تنبو عمن يقرأها .

وكان يقدر أن الاساتذة في السوربون ، سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة ، كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب . فلم يكن له بدّ اذن من أن يتهيأ لتحرير هذه الواجبات حين تطلب اليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء . وما أكثر ما كان الاساتذة يسخرون من طلابهم اذا كتبوا لهم الواجبات فقصروا

في بعض نواحيها . وكان الاساتذة يقرأون بعض هذه الواجبات ، يختارون من بينها للقراءة أشدها تعرضاً للنقد ، ثم يأخذون في هذا النقد على نحو لاذع ممض يحرضون به الطلاب على أن يحسنوا العناية حين يكتبون . وكانت سخريتهم بالمقصرين تضحك الزملاء ، وتخرجهم احياناً عن أطوارهم .

فكره الفتى أن يتعرض لبعض هذه السخرية ، ولكنه تعرض ذات يوم لشرّ منها . كلفه أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزبية في فرنسابعد سقوط نابليون ، فأقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع في الكتب التي نبّه اليها الاستاذ ، وفكر فيه كما استطاع أيضاً . ثم كتب عنه ما أتيح له أن يكتب وقدمه الى الاستاذ في اليوم الموعود . وجاء يوم النقد فاستعرض الاستاذ ما قدم اليه من الواجبات ناقداً ساخراً منددأ متندراً موبخاً بعض الطلاب أحياناً ، حتّى اذا ذكر اسم الفتى لم يزد على أن ألقى اليه واجبه معقّباً بهذه الجملة المرة التي لم ينسها قط : « سطحيّ لا يستحق النقد » . وكان لهذه الكلمة وقع لاذع في نفس الفتى أمضّه بقية يومه وأقضّ مضجعه حين أقبل الليل . وأشعره بأنه لم يتهيأ بعد كما ينبغي ليكون طالباً في السوربون ، فألح في درس الفرنسية وكلف نفسه في هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتصل ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس . وأعرض عن المشاركة في كتابة الواجبات حتّى تم له اداة هذه الكتابة وهي اللغة الفرنسية .

وبينما كان الفتى يمتحن بأثقال هذه الحياة المادية والعقلية العسيرة ، مجاهداً ما استطاع الجهاد ، مروعاً بين حين وحين بهذا اليأس الذي كان يتراءى له من وقت الى وقت فيشقيه ويضنيه ، فتح له باب من أبواب الامل لم يكن يقدر انه سيفتح له في يوم من الايام . ألمت علة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذي كان نعيمه الوحيد في حياته الشاقة المظلمة ، فأقبل يعودها وجلس يتحدث اليها ، ثم لم يدر كيف التوى به الحديث ، ولكنه سمع نفسه يلقي اليها في صوت أنكره هو قبل أن تنكره هي : انه يحبها .

ثم سمعها تجيبه بأنها هي لا تحبه .

قال :

ـ وأي بأس بذلك ؟

انه لا يريد لحبه صدى ولا جواباً وانما يحبها وحسب .

فلم تجبه ، وغيّرت مجرى الحديث ، وانصرف عنها بعد ساعة ، وقد استقر في نفسه أن حياته ستسلك منذ ذلك اليوم طريقاً جديدة .

وليس من شك في أن نفسه كانت قد تعلقت بذلك الصوت العذب ثم بصاحبته منذ وقت طويل .. والا فما جزعه حين اضطر الى العودة الى مصر ؟.. وما ابتهاجه بهذه الرسائل التي كانت تصل اليه ؟ .. وما شوقه العنيف الى العودة الى فرنسا ليسمع فيها ذلك الصوت ؟ .. وما خروجه عن طوره حين وجد الرسالتين اللتين

كانتا تنتظرانه في نابولي ؟ .. وما الحاحه على صاحبه الدرعمي في أن يقرأ عليه هاتين الرسالتين مرة ومرة ومرة حتى أملّه ؟... ثم ما حرصه على أن يسمع هذا الصوت في باريس ؟.. وما نزوله في بيته ذاك الذي كان يسمع فيه هذا الصوت يتردد في كل ساعة من ساعات النهار ، ويلقى فيه صاحبة الصوت حين يريد لقاءها دون أن يتكلف لذلك جهداً أو سعياً أو انتظاراً .. وما سعادته بأنه كان يقيم في هذا البيت غير بعيد من ذلك الشخص الذي كان يلقي عليه تحية الصباح حين يخرج من غرفته ، ذاهباً الى السوربون ويلقي عليه تحية المساء ، حين يتقدم الليل ويأوي أهل البيت الى مضاجعهم . ويقرأ عليه بين ذلك ما شاء الله من آيات الادب الفرنسي ؟

ولكن حبه كان يستحيي حتى من نفسه فينكرها ، وكان الفتى يخفي شعوره ذاك في أبعد ما يمكن أن يستقر من أعماق ضميره ، ويكره أن يتحدث به الى نفسه ، وقد استيقن انه لم يخلق لمثل هذا الشعور وان مثل هذا الشعور لم يخلق له .. وأين هو من الحب ؟ وأين الحب منه ؟

انما كتب عليه ان يعيش كما عاش مثله الاعلى ذلك الذي وقف حياته منذ قرون طوال في دارٍ من دور المعرة على الدرس ممعناً فيه ، غير معنيّ الا به ، محرّماً على نفسه ما اباح الله للناس من طيبات الحياة ..

كان الفتى يطوي نفسه على شعوره ذاك يائساً منه ومن عواقبه ،

راضياً بما يتاح له من سماع ذلك الصوت ومن الحديث الى صاحبته حين يتاح له الحديث اليها ، واثقاً بأن هذا أقصى ما يمكن ان يساق اليه من النعيم .. غير طامع في اكثر منه .. وكان واجداً على الحياة والظروف لانها تحول بينه وبين اكثر منه .

ولكن العلة الطارئة التي ألمت بصاحبته والصوت العذب الذي ادركه الضعف وشاع فيه الفتور والاشفاق من الالم والجهد ، على ما كان يكره له ان يحس الالم او يحمل ثقل الجهد ، كل ذلك ملك عليه امره وملأ عليه قلبه وانساه تحفظه وتحرجه ، واجرى على لسانه تلك الكلمة التي أنكرها . وليس غريباً بعد ذلك انه لم يجد حزناً ولا شقاء ولم يحس لوعة ولا ألماً حين بلغ مسمعه الرد على كلمته تلك موئساً مقنطاً . فهو لم يكن ينتظر الا اليأس والقنوط ، قد وطّن نفسه عليهما وعزّى نفسه عنهما بما كان يمعن فيه من الدرس والتحصيل .

وهو قد انصرف عن صاحبته في ذلك اليوم راضياً عن نفسه ساخطاً عليها .

راضياً عنها لانها قالت ما لم يكن بدّ من ان يقال .

ساخطاً عليها لانها عرّضته بهذه الكلمة لشر عظيم ، فهي قد عرضته لاشفاق تلك الفتاة عليه ورثائها له وضيقها به . ومن يدري لعلها تريد أن تصرفها عنه صرفاً ، وان تلقي بينها وبينه حجاباً يقطع تلك الاسباب العذاب التي كانت تتيح لهما اللقاء والاستمتاع العقلي والشعوري بما كانا يقرآن معاً من آيات الادب الفرنسي .

ومن يدري لعل هذه الكلمة التي القاها في غير تدبر وعن غير ارادة ان ترده الى تلك الظلمة المظلمة التي ظن انه قد خرج منها. وان تضطره في يوم قريب او بعيد الى ان يترك ذلك البيت ويلتمس له مسكناً آخر لا يسمع فيه ذلك الصوت ولا يلقى فيه ذلك الشخص ولا يجد فيه شعور الرضى والنعيم.. وانما يجد فيه شعوراً آخر كله سخط مرّ وحزن ممضّ وألم مفسد للحياة.

عاش صاحبنا بين هذا السخط وذلك الرضى اياماً لم يكد ينتفع فيها بقراءة او درس ولم يكد يذوق فيها للحياة طعماً.

ولكنه يلقى صاحبته بعد أن انجلت عنها غمرة العلة، فاذا هي كعهده بها لم تتغير، لم تزدد اقبالاً عليه، ولم يجد منها اعراضاً عنه ولا نفوراً منه، وانما هي تلقاه كما تعودت ان تلقاه رفيقة به عطوفاً عليه، وتقرأ له كما تعودت أن تقرأ له، وتبين له ما يشكل عليه أثناء القراءة، كما تعوّدت ان تفعل من قبل، فيردّه ذلك الى شيء من الامن، ثم الى شيء من الدعة وراحة البال، وتنقضي ايام، واذا ذلك الشعور الخفي العميق الذي ظهر فجأة في ساعة من الساعات ثم استحيا وعاد الى مستقره ذاك من اعماق الضمير، يظهر مرة اخرى ولكن في تحفظ وتردد واناة، لا يتحدث الى الفتاة بشيء ولا يتحدث الى الفتى بشيء حين يلقاها، وانما يكمن في مستقره من اعماق الضمير.

حتى اذا تقدم الليل وخلا صاحبنا الى نفسه وهم ان يستقبل النوم خرج ذلك الشعور من مكمنه وذاد النوم عن صاحبه وجعل

يسامره حتى يوشك الصبح ان يسفر ثم يعود الى مكمنه ذاك ويسلم الفتى الى نوم قصير.

ولم تلبث آثار هذا الارق المتصل ان تظهر وان يلحظها اهل البيت، وتلحظها معهم ذات الصوت العذب، وهم يسألونه عن أمره فيلتوي بالجواب وهم يريدون أن يعرضوه على الطبيب فلا يستجيب لما يريدون وانما يزعم لهم ان ليس به بأس.

وما يزال هذا شأنه حتى يظهر عليه بعض الضرّ. وتسألـه الفتاة ذات يوم وقد خلت اليه تقرأ عليه بعض ما كانا يقرآن، فيريد ان يلتوي بالجواب، فتلحّ عليه واذا هو ينبئها مريداً او غير مريد بأمره كله.

فتسمع له ثم تسكت عنه ثم تأخذ في القراءة حتى اذا اتمتها وهمت ان تنصرف قالت له في رفق:

– واذن فماذا تريد؟

قال الفتى:

– لا اريد شيئاً.

قالت:

– فاني قد فكرت فيما انبأتني به واطلت فيه التفكير ولم أنته بعد الى شيء، وقد أوشك الصيف ان يظلنا وسنفترق، فاصبر حتى اذا كان افتراقنا فستتصل بيننا الرسائل كما تعودنا ان نفعل. فاذا قرأت في بعض رسائلي اني ادعوك الى ان تنفق معنا بقية الصيف

فاعلم اني قد اجبتك الى ما تريد وان لم تقرأ هذه الدعوة حتى ينقضي الصيف فاعلم انها الصداقة الصادقة بينك وبيني لسيں غير .

ولم يسعد الفتى بشيء قط كما سعد بهذا الحديث ، وكانت آية سعادته انه اطرق ولم يقل شيئاً .

وأقبل الصيف وكان الافتراق ، ذهبت هي الى قرية في اقصى الجنوب .. واقام هو في باريس واتصلت بينهما الرسائل ولكنها قبل ان تفارقه كلفت زميلة لها ان تكون هي الكاتبة القارئة لرسائلهما حتى لا يطلع على هذه الرسائل زميل من زملائه .

واتصل الفراق شهراً .. ولكن رسالة تصل اليه في آخر هذا الشهر وفيها الدعوة المرتقبة الى ان يقضي معها ومع اسرتها بقية الصيف .. واذن فقد تحقق امله ، او كاد ان يتحقق ، وهو يعلن الى زملائه المصريين انه سيترك باريس الى حيث يقضي الصيف مع تلك الاسرة وهم يصدّونه عن ذلك مشفقين عليه .

ولكنه مصرّ على ما اراد ، فيصحبه صديقه الدرعمي ذات مساء الى حيث يضعه في القطار ويوصي به بعض من فيه .. وينصرف عنه ويدعه وحيداً . وينفق الفتى ليلاً في القطار ، لا يدري أقصر أم طال لانه لم يفكر أثناءه الا في هذا اللقاء الذي سيكون حين يرتفع الضحى ويبلغ القطار غايته ، واذا الصوت العذب يدعو صاحبنا في رفق وعطف وحنان ويشعر بأنه منذ اليوم سيخلق خلقاً جديداً .

الفصل الخامس عشر

المرأة التي أبصرت بعينيها !

واستأنف الفتى حياة جديدة ، بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها !
كان يرى نفسه في كلمة أبي العلاء حين قال انه أنسيّ الولادة ، وحشيّ الغريزة .

كان يرى نفسه انساناً من الناس ولد كما يولدون وعاش كما يعيشون ، مقسّم الوقت والنشاط فيما يقسمون فيه وقتهم ونشاطهم . ولكنه لم يكن يأنس الى أحد، ولم يكن يطمئن الى شيء، قد ضُرب بينه وبين الناس والاشياء حجابٌ ظاهره الرضى والامن ، وباطنه من قبله السخط والخوف والقلق واضطراب النفس ، في صحراء موحشة لا تحدّها الحدود ، ولا تقوم فيها الاعلام ، ولا يتبين فيها طريقه التي يمكن أن يسلكها ، وغايته التي يمكن أن ينتهي اليها .

ولكنه ينظر ذات يوم فاذا هو قد أخذ يتخفف قليلاً قليلاً من غريزته تلك الوحشية القلقة ، ويحس شيئاً من الانس الرفيق الى بعض الناس ، ثم يحس هذا الانس يقوى في نفسه من يوم الى يوم ، واذا هو لا يطمئن الى ذلك الشخص الحبيب اليه الكريم عليه ، وانما يطمئن الى غيره من الناس أيضاً .

كان يرى نفسه غريباً أينما كان وحيثما حل ، لا يكاد يفرق في ذلك بين وطنه الذي نشأ فيه ، وبين غيره من الاوطان الاجنبية التي كان يلم بها ، لان ذلك الحجاب الصفيق البغيض الذي ضرب بينه وبين الدنيا منذ أول الصبي كان محيطاً به ، يأخذه من جميع أقطاره في كل مكان ، فكان الناس بالقياس اليه هم الناس الذين يسمع أصواتهم ، ويحس بعض حركاتهم ، ولكنه لا يراهم ولا ينفذ الى ما وراء هذه الاصوات التي كان يسمعها والحركات التي كان يحسها .

كان غريباً في وطنه ، وكان غريباً في فرنسا ، وكان يرى أن ما يصل اليه من حياة الناس ليس الا ظواهر لا تكاد تغني عنه شيئاً .

وكانت الطبيعة بالقياس اليه كلمة يسمعها ولا يعقلها ، ولا يحقق من أمرها شيئاً ، كأنما أغلق من دونها بالقياس اليه باب لاسبيل له الى النفوذ منه . كان ينكر الناس وينكر الاشياء . وكان كثيراً ما ينكر نفسه ويشك في وجوده !

كانت حياته شيئاً ضئيلاً نحيلاً رقيقاً لايكاد يبلغ نفسه . وكان ربما تساءل بين حين وحين عن هذا الشخص الذي كان يحسه مفكراً مضطرباً في ضروب من النشاط ماهو ! وما عسى أن يكون ! وكان ذلك ربما أذهله عن نفسه وقتاً يقصر أو يطول ، فاذا ثاب اليها أو ثابت اليه أشفق من هذا الذهول وظن بعقله الظنون . وتساءل أيجد الناس من الذهول عن أنفسهم مثل ما يجد ويحسّون من انكار أنفسهم مثل ما يحس .

كانت حياته حيرة متصلة كلما خلا الى نفسه . وكان لا يملك أمره الا حين كان يتحدث الى الناس أو يسمع لهم أو يختلف الى الدروس أو يصغي لما كان يقرأ عليه . فأخذ كل هذا ينجاب عنه وأخذ يدخل في الحياة كأنه لم يعرفها من قبل وكان ذلك الشخص الحبيب اليه الكريم عليه هو الذي أخرجه من عزلته تلك المنكرة . فألغى في رفق وفي جهد متصل أيضاً ما كان مضروباً بينه وبين الحياة والاحياء والاشياء من الحجب والاستار !

كان يحدثه عن الناس فيلقى في روعه أنه يراهم وينفذ الى أعماقهم .

وكان يحدثه عن الطبيعة فيشعره بها شعور من يعرفها من قرب .

كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الارض نوراً ، وعن الليل حين يملأ الارض ظلمة ، وعن مصابيح السماء حين ترسل سهامها المضيئة الى الارض ، وعن الجبال حين تتخذ من الجليد تيجانها الناصعة ، وعن الشجر حين ينشر من حوله الظل والروح والجمال ، وعن الأنهار حين تجري عنيفة والجداول حين تسعى رشيقة ، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ومن مظاهر القبح والبشاعة فيمن كان يحيط به من الناس ، وفيما كان يحيط به من الاشياء .

فكان يخيل اليه أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفية عليه ولم تكن غريبة بالقياس اليه كأنه قد عرفها في الزمان الاول البعيد ، ثم نسيها دهراً طويلاً . فهو يذكرها بعد أن طال عهده بها .

وكذلك أخذت تثوب اليه ثقته بنفسه وراحته الى غيره ، وأخذ ينجلي عنه الشعور بالغربة ، والضيق بالوحدة والسأم من العزلة .

وليس من شك في أنه قد صدق كل الصدق وأعرب عن ذات نفسه في غير تكثر ولا غلو حين قال في بعض ما كتب أن فتاته تلك قد جعلت شقاءه سعادة ، وضيقه سعة وبؤسه نعيماً وظلمته نوراً .

ولم ينفق الفتى وصاحبته صيفهما ذاك فيما تعود الفتيان المحبون أن ينفقوا فيه أيام حبهم الاولى من تلك الحياة الهائمة الناعمة التي تخلص من المشقـــة وتتخفف من الجهد وتفرغ لرضى النفوس وغبطة القلوب والذهاب مع الخيال الهائم في كل مذهب.

وانما عرفا أن وقتهما أضيق من الفراغ للحب ونعيمـــه ، فوقت الفتى في فرنسا محدود ، وعليه واجبات يجب أن تؤدى ، وله مهمة يجب أن تتم ، وهو مسؤول عن هذا كله أمام جامعة في مصر لا تعرف السماح ولا المزاح مع الذين ترسلهم الى أوروبا ليطلبوا العلم فيها .

ولها الحق كل الحق في ذلك ، فهي انما ترسلهم الى أوروبا ليتعلموا لا ليحيوا ، وليجدّوا في طلب العلم لا ليتعلقوا بأسباب الخيال .

وما أكثر ما ذكر الفتى أشهر الصيف تلك في أقصى الجنوب الفرنسي ، وما جاء بعدها من الشهور في باريس ، فرضي عن صاحبته وعن نفسه رضى لا تشوبه شائبة من سخط أو انكار .

وانظر الى فتاة وفتى في أول عهدهما بالخطبة ينفقان أكثر النهار في درس اللاتينية حين يصبحان ، وفي قراءة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون حين يرتفع الضحى .

فاذا جاء وقت الغداء ألمّا بالمائدة فأصابا شيئاً من طعام . ثم أقبلا على تاريخ اليونان والرومان فقرآ منه ماشاء الله أن يقرآ .

فاذا كانت الساعة الخامسة انصرفا عن تاريخ اليونان والرومان الى الأدب الفرنسي فقرآ منه ماشاء الله أن يقرآ كذلك . لا ينصرفان عن القراءة الا ريثما يخرجان للتروض خارج القرية التي يعيشان فيها . ينفقان في تروضهما ذاك ساعة أو أقل من ساعة ثم يعودان الى المائدة فيصيبان شيئاً من طعام ثم تجتمع الاسرة كلها الى كتاب يقرأه عليها ذلك الصوت العذب .

حتى اذا تقدم الليل شيئاً تفرقت الجماعة ، وأوى كل واحد منها الى غرفته ، وخلا صاحبنا الى نفسه يذكر ماضيه الغريب وينعم بحاضره السعيد ويفكر في مستقبله المجهول .

ينفق في ذلك اكثر الليل مؤرقاً لا يكره الارق ولا يدعو النوم . ولكن النوم يغلبه على أمره من آخر الليل . فاذا أسفر له الصبح استقبل يومه آخذاً في الدرس كما فعل من أمس .

وعلى هذا النحو أنفق الاشهر الاولى لخطبته ، ثم يعود مع الاسرة الى باريس فيستأنف فيها حياته الجامعية مختلفاً الى السوربون حين يصبح وحين يمسي ، خالياً الى قارئته بين ذلك والى أستاذ الفرنسية يوماً وأستاذ اللاتينية يوماً آخر ، مقدراً عسر المهمة التي تكلفها وبعد الغاية التي يسعى اليها .

وكان قد أزمع أن يظفر قبل كل شيء بدرجة الليسانس ثم يتقدم للدرجة الدكتوراه بعد ذلك ، ولم يكن الطلاب المصريون

الى ذلك الوقت يحاولون الظفر بدرجة الليسانس هذه ، لأنها كانت تكلف الذين يطلبونها عناء ثقيلاً .. كانت تكلفهم اتقان الفرنسية أولاً ليؤدوا الامتحان التحريري فيما يدرسون من العلم ، وليؤدوه كما يؤديه الطلاب الفرنسيون يكتبون ما يرادون على كتابته في لغة فرنسية مستقيمة لاعوج فيها ولا خطأ ، وكانت تكلفهم درس اللاتينية ليؤدوا فيها امتحاناً تحريرياً كذلك .

ولم تكن اللاتينية تدرس في مصر لا في المدارس الثانوية ولا في المدارس العالية .

فكان المصريون يرون أنهم لن يستطيعوا مجاراة زملائهم من الطلاب الفرنسيين في هذه اللغة التي لم يسمعوا بها قبل وصولهم الى فرنسا ، على حين كان الطلاب الفرنسيون يدرسونها ست سنين في مدارسهم الثانوية ، ثم يدرسونها في الجامعة قبل أن يتقدموا لامتحان الليسانس .

من أجل ذلك كان المصريون يعرضون عن درسها اعراضاً لا تكلف فيه ، ويعرضون بالطبع عن درجة الليسانس التي لاسبيل اليها من غير هذه اللغة .

وكان ثلاثة من المصريين قد أزمعوا أن يقهروا هذه الصعوبة .. ويقتحموا هذه العقبة ويدرسوا اللغة اللاتينية ، ويظفروا بدرجة الليسانس مهما يكلفهم ذلك من الجهد والعناء . فأما أحدهم فقد جدّ وكدّ وتقدم للامتحان فأخفق ، ثم أخذ يستعد ليؤدي الامتحان في العام المقبل . ولكن الاسباب تقطعت بينه وبين ذلك . أدركته

العلة فاضطرب أمره ، واختلط عقله ، وردّ الى مصر فأنفق فيها أياماً كئيبة بائسة يائسة ، فاستأثرت به رحمة الله فأراحتـــه من أثقال الحياة .

وأما الآخر فكان الاستاذ الدكتور صبري السوربوني .

وقد جدّ وكدّ وتقدّم للامتحان مرة ومرة ، ولكن عقدة اللاتينية أدركته ، فكان اذا أقبل على الامتحان وتلقى النص اللاتيني الذي يجب أن يترجمه الى الفرنسية ألقى عليه نظرة سريعة . ثم طواه وقدم الى الممتحنين صحفه بيضاء لم يمسها خطأ أو صواب . وانصرف ضاحكاً يتمثل ببيت لاتيني قديم يصور اليأس والقنوط ، ولكنه لم يعرف يأساً ولا قنوطاً ، ولم يذعن لعقبة أو صعوبة ، وإنما حاول وطاول وألحّ في المحاولة والمطاولة حتى تقدم للامتحان ذات يوم وتلقى النص اللاتيني فلم ينظر فيه نظرة سريعة ، وإنما أقبل عليه فترجمه وقدم الى الممتحنين صحفاً أتاحت له الفوز والنجح .

وكان صاحبنا ثالث هذين الزميلين ، وكان قد عرف من أمر صاحبيه ما يحتملان من مشقة وما يبذلان من جهد . وما يلقيان من اخفاق ، فلم يفلّ ذلك من عزمه ، وإنما مضى في درس اللاتينية في بيته وفي السوربون مصمماً على أن يظفر بهذه الدرجة مهما يكن دونها من العقاب .

ولكن مشكلة خطيرة عرضت له ، وكانت خليقة أن تفسد عليه أمره كله ، ولم يكن بينها وبين الدرس صلة ، فهو قد خطب تلك الفتاة الى نفسها والى أسرتها ، وقد قبلت الفتاة خطبته بعد تردّد

طويل ، وقبلتها الاسرة بعد امتناع واباء . ولكن صاحبنا لم ينس الا شيئاً واحداً ، وهو أنه قد أعطى الجامعة قبل أن يسافر الى أوروبا ذلك العهد الذي كان يعطيه أعضاء البعثة جميعاً قبل سفرهم ألا يتزوج أثناء اقامته في الخارج طالباً للعلم .

وهو لم ينقض هذا العهد لانه خطب ولم يتزوج ولكنه عجل الى الزواج . فليس له بد اذن من استئذان الجامعة أو نقض العهد الذي أعطاه لها . وقد أزمع أن يستأذنها وكتب اليها في ذلك . ولكنه كان يطيل التفكير في عواقب هذا الكتاب ، كان يرجح ألا تأذن له الجامعة وكان يسأل نفسه فيطيل السؤال عما يكون من أمره ان رفضت الجامعة الاذن له فيما يريد .

وكان ذلك ربما نغّص عليه حياته من حين الى حين . ولكن الجامعة كانت أرأف به وأرحم له مما قدر ، فأذنت له بعد خطوب لم يعرفها الا بعد أن أتمّ درسه وعاد الى مصر .

اذنت له الجامعة اذن ، ولكنه هو لم يأذن لنفسه ولم تأذن له الفتاة حتّى يظفر بدرجة الليسانس هذه التي لم يظفر بها مصري بعد ، وحتّى يشعر الجامعة بأنه صاحب جدّ ونشاط وانتاج لا صاحب لعب وكسل واشتغال بنفسه عما يجب عليه من الدرس والتحصيل .

والغريب من أمر صاحبنا أنه لم يكن في ذلك العام يتهيأ لامتحان الليسانس وحده ، وانما كان في الوقت نفسه يعدّ رسالته للدكتوراه وقد زاده اذن الجامعة له بالزواج جداً وكداً ونشاطاً ، حتّى كان

العام الاول لخطبته غريباً حقاً ، كلف فيه نفسه وخطيبته من الأمر أعسره وأشده مشقة .

ولم ينس الفتى قط ولم ينس صاحبته انهما كانا يخرجان بين حين وحين في أيام الآحاد من باريس يطلبان النزهة والتروض ، فلم يخرجا قط وحدهما وإنما صحبهما دائماً كتاب من هذه الكتب الثقال التي ترهق القارئين فيها من أمرهم عسرا ؛ والذين يعرفون كتب أوجست كونت ويقدرون ما فيها من العسر الذي يتصل بمعانيها وألفاظها وأسلوبها يرحمون هذين الخطيبين اللذين كانا يختلفان الى هذه الغابة او تلك من الغابات التي تحيط بباريس ، فيأويان الى ظل شجرة من أشجارها ويأخذان في هذه القراءة العسيرة الشاقة المرهقة التي لم يكن بينها وبين ما كان يملأ قلبيهما من الحب والأمل سبب قريب أو بعيد .

وقد أقبلت بوادر الصيف من ذلك العام وجعل الفتى يستعد للامتحان ثم دفع اليه في شهر يونيو فلم يتردد ولم يتلكأ وإنما أقدم في عناد أي عناد . لم يكن واثقاً بنفسه ولا مطمئناً الى نتيجة هذه المغامرة التي يقدم عليها ، ولكنه كان يقول لنفسه إن أتيح لي النجح فرمية من غير رام ، وان كتب عليّ الاخفاق فما أكثر الذين يخفقون !

وكان مزمعاً ان ظفر بالنجح أن يبرق به الى الجامعة ، وان كتب عليه الاخفاق أن يكتمه ويجعله سراً بينه وبين نفسه إن أمكن أن يكتّم الاخفاق في الامتحان ، ومن حوله زملاؤه المصريون

يرقبونه رفاقاً به مشجعين له عاطفين عليه .

وقد أتيح له النجح .. وكان الاستاذ الدكتور صبري السوربوني هو الذي أقبل ذات مساء فرحاً يكاد يخرجه الفرح عن طوره ، مكدوداً يكاد يقطع الاعياء تنفسه لشدة ما جرى بين السوربون وبين بيت الفتى .. ولشدة ما أسرع في صعود السلم الى بيت الفتى في الطبقة السادسة . فلم يكد يفتح له الباب حتى أعلن لمن فتحه له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس ، ولم يدخل وانما رجع أدراجه لم يرد حتى أن يستريح .

وكان الزميل الكريم قد تقدم للامتحان ولم يكد ينظر في النص اللاتيني حتى طواه وقدم صحفه البيضاء وانصرف ضاحكاً متمثلاً ببيته اللاتيني ذاك الذي يصور اليأس والقنوط . فكان رائعاً حقاً أن يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة أملك له وأشد استئثاراً به من اخفاقه هو في الامتحان !..

وألقي نبأ النجح الى الفتى ، فلم يصدقه حتى صحبته خطيبته الى السوربون وقرأت له اسمه بين اسماء الناجحين ، ثم لم تعد به الى البيت حتى حجزت أمكنة للأسرة كلها في بيت موليير تكافيء بذلك صديقها وخطيبها على هذا النجح الذي لم يكن مرتقباً .

وأصبح الفتى من غده فأبرق الى الجامعة ولم يمض يومان حتى أبرقت اليه الجامعة تهنئه وترسل اليه مكافأة قدرها عشرون جنيهاً .. في ذلك اليوم قرر الخطيبان أن يتما زواجهما قبل رحلة الصيف الى الجنوب .

الفصل السادس عشر

طلبت تأجيل الامتحان.. للزواج!

وكان أمر الفتى في عامه الدراسي ذاك عجباً كله ، فهو لم يتهيأ لامتحان الليسانس وحده على ما فيه من عسر ومشقة ، وانما جعل يعدّ رسالته للدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، فقرأ لذلك ما شاء الله ان يقرأ في اللغتين العربية والفرنسية ، وترجمت له نصوص اخرى من لغات أوروبية مختلفة ، ثم أخذ في املاء رسالته ، يقول هو وتكتب صاحبته ، وتقوّم في اثناء ذلك ما يعوجّ من لغته الفرنسية . ولا يكاد يفرغ من املاء فصل من فصول هذه الرسالة حتى يعيد قراءته ثم يعرضه على استاذه المستشرق الفرنسي كازانوفا ، فاذا أقرّه أخذ في املاء الفصل الذي يليه. ولم تكن الجامعة قد فرضت عليه هذه الرسالة ، بل لم يكن بين هذه الرسالة وبين برنامجه الدراسي سبب . فهو قد أرسل ليدرس التاريخ ، وكلّف الحصول على درجة الليسانس وتطوّع هو بهذه الرسالة لانه سمع دروس الاجتماع التي كان يلقيها الاستاذ دوركيم ، فشغف بهذا العلم أي شغف ، وأراد أن تكون له مشاركة فيه ، وان يشرف الاستاذ على هذه المشاركة . فاتفق معه على موضوع الرسالة وعلى ان يكون هو مشرفاً عليها من الناحية الفلسفية ، وان

يشاركه في الاشراف مستشرق يحسن العلم بالشؤون العربية والاسلامية فكان كل فصل من هذه الرسالة يقرأه استاذان ، يقرأه الاستاذ المستشرق أولاً ثم يقرأه الاستاذ دوركيم بعد ذلك .

ولما استقام أمر هذه الرسالة للفتى كتب الى الجامعة ينبئها بما صمم عليه ، وبأن هذا لن يغير من برنامجه المرسوم شيئاً ، بل ينبئها بأنه يزمع ان يضيف الى هذا البرنامج المرسوم شيئاً آخر : يريد إن ظفر بالليسانس ان يظفر بالاجازة التي تليه ، وهي دبلوم الدراسات العليا . واستأذن الجامعة في أن يتهيأ لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ ، على ان ذلك يستلزم أن تمتد اقامته في أوروبا أربعة أعوام بعد حصوله على الليسانس والدبلوم .

فكتبت اليه الجامعة تأذن له بنيل الدبلوم ان استطاع بعد الليسانس ، وتعفيه من دكتوراه الدولة في التاريخ ، لأنها تطيل اقامته في أوروبا وتكلف الجامعة من النفقات أكثر مما تطيق .

ثم أذنت له بتقديم رسالته عن ابن خلدون لنيل دكتوراه الجامعة ، وذكرته بالعهد الذي قطعه على نفسه قبل أن يسافر من مصر وهو الا يقدم رسالة الى جامعة أجنبية مهما يكن موضوعها الا بعد أن تقرأها الجامعة المصرية وتأذن في تقديمها . وكان الصديق الكريم الدكتور منصور فهمي هو الذي اضطر الجامعة الى ان تأخذ طلابها في أوروبا بأن يعطوا على أنفسهم هذا العهد .

والناس لم ينسوا بعد ما أثارت رسالة الدكتور منصور التي حصل بها على الدكتوراه من ضجيج وعجيج أثارا سخط الهيئات

الرسمية أولاً ، وسخط الرأي العام بعد ذلك ، واضطر الصديق الكريم الى أن ينأى عن مصر قريباً من عام ، ولا يعود اليها الا حين اضطرته الحرب الى أن يعود . وحيل بينه وبين التعليم في الجامعة أعواماً ، حتى اذا كانت الحركة المصرية سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف ، وما نشأ عنها من الاحداث ومن تحرر العقول ، أُذِن له بما كان ينبغي ان يؤذن له فيه منذ أتم درسه في فرنسا . وكان ثروت باشا رحمه الله هو الذي أذن له في ذلك .

ولم ينس الفتى مساء يوم من الأيام جلس فيه بين زملائه الى بعض الاساتذة في الجامعة حين كان طالباً ، وانه لمصغٍ الى الاستاذ واذا يدٌ تمسّه مساً رفيقاً ثم تحاول اقامته من مكانه فيلتفت فينبئه صوت بان الذي يريد ان يقيمه هو علوي باشا ، فيستجيب الفتى لهذه اليد وهو يشفق في نفسه من بعض الشر . فهو قد اقيم مرة من درسه في الأزهر مع صاحبين له ليقدما للمحاكمة أمام شيخه الأكبر الشيخ حسونة رحمه الله . وقد سأل الفتى نفسه الى من سيقدم ، وفيم يمكن أن يحاكم هذه المرة . ورأى الفتى نفسه قد أُجلس على كرسي وقيل له انك أمام مجلس ادارة الجامعة وان المجلس يريد ان يسألك عن بعض الأمر . واذا صوتٌ رقيق يتحدث اليه في رفق فينبئه أولاً باسمه عبد الخالق ثروت ، ويسأله بعد ذلك عن حكم الدين في اشياء تليت عليه من رسالةٍ لطالب من طلاب الجامعة في أوروبا .

قال الفتى : فانه لا يملك الافتاء في أمور الدين .

قال محدّثه : فإنّا نريد أن نعرف رأيك .

قال الفتى وهو يبسم في شيء من غضب ساخر :

—كنت أظن أنني في الجامعة حيث لا يحاسب الناس على آرائهم . فاذا أنا اراني في الازهر لا أُسأل عن رأي نفسي ، وانما أُستفتى في رأي غيري من الناس .

قال صوت غليظ :

— ردّه يا علوي باشا الى درسه فلن نأخذ منه شيئاً .

ورُد الفتى الى درسه لم يصحبه في عودته علوي باشا وانما صحبه خادم من خدم الجامعة .

ومنذ أثار الدكتور منصور ذلك الضجيج أقامت الجامعة نفسها رقيباً على رسائل طلابها ، وأخذت عليهم العهد الا يقدّموا رسائلهم الى الجامعات الاجنبية حتى تأذن لهم هي في ذلك بعد أن تقرأ الرسائل وتقرّها . فلما استأذنها الفتى في تقديم رسالة عن ابن خلدون ذكرته بعهده ذاك ، فوفى به وأرسل نسخة من الرسالة بعد أن أتمّها ، وأحالها مجلس الادارة الى الاستاذ احمد لطفي السيد فقرأها ورضي عنها وأذنت الجامعة في تقديمها الى السوربون .

ولم ينقض شهر يوليو من ذلك العام حتى كان الفتى قد نجح في الليسانس من جهة، وأذنت له السوربون في طبع رسالته توطئة لمناقشتها بعد الصيف .

وقد تخفف الفتى من عبئين ثقيلين.. عبء الليسانس وما فيه من امتحان اللغة اللاتينية ، وعبء الرسالة وما فيها من رقابة الجامعة والاذن في تقديمها . على ان فوزه بالليسانس لم يكن كاملاً ، فهو قد نجح في الامتحان التحريري نجاحاً حسناً ، ولكنه كان قد شق على نفسه بالاستعداد لهذا الامتحان وكتابة الرسالة وهو بعد ذلك مشغول متصل التفكير في زواجه الذي اذنت به الجامعة والذي كان يجب أن يتم في ذلك الصيف .

فخادع الفتى نفسه شيئاً ، وقرر أن يرجيء الامتحان الشفهي الى الدور الثاني في أول العام الدراسي ، وما هي الا أن يعرض نفسه على طبيب فيشهد كتابةً بأنه مكدود الاعصاب محتاج الى الراحة ، ويقدم هذه الشهادة الى السوربون فتؤجل ما بقي من امتحانه الى شهر نوفمبر ، ويفرغ الفتى لنفسه وخطيبته ، وما كان يعنيهما من أمر الزواج .

فاذا كان اليوم التاسع من اغسطس من ذلك العام ، أصبحا زوجين حين انتصف النهار وتركا باريس الى الجنوب حين أقبل الليل . ولم يفرغا مع ذلك لحياتهما الجديدة اثناء الصيف ، وانما استقرا في مدينة هادئة من مدن الجنوب ، واقبلا فور استقرارهما على ما لم يكن بدّ من الاقبال عليه وهو الاستعداد للامتحان الذي يجب ان يؤدى بعد شهرين .

وكان الإستعداد عسيراً حقاً . فلم يكن بدّ لطالب الليسانس في التاريخ من أن يكون مستعداً بعد نجاحه في الامتحان التحريري

لان يسأل فيما يريد الاساتذة أن يسألوه فيه من تاريخ العصور القديمة وتاريخ القرون الوسطى والتاريخ الحديث والتاريخ المعاصر والجغرافيا والفلسفة ولغة أوروبية غير اللغة الفرنسية . وحسبك بهذا كله عبئاً ثقيلاً وعناء طويلا . وحسبك به أو بالاستعداد لـه نعيماً يلائم حياة عروسين قد اتما زواجهما منذ أيام .

وهما مع ذلك يقبلان على هذه المحنة الثقيلة لا يضيقان بها ولا ينفران منها ، وانما يصبحان في التاريخ ويمسيان في الجغرافيا ويلمان بالانجليزية بين ذلك ، ويتركان أمر الفلسفة الى الله والى ذاكرة الفتى ، وما يمكن أن يكون قد استقر فيها مما سمع في السوربون أثناء العام .

وينقضي الصيف ويعود الزوجان الى باريس ، ويقبل صاحبنا على الامتحان مشفقاً منه أعظم الاشفاق ، مروّعاً به أشد الروع لا يخاف التاريخ القديم ، وانما يخاف أشد الخوف اساتذة التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر ، ولا يكاد يذكر الجغرافيا حتى يجن جنونه ، فقد كان واثقاً بأنه مخفق فيها من غير شك . وقد كتب عليه ان يرضى في يوم من أيام الامتحان كل الرضى مصبحاً وان يسخط فيه كل السخط ممسياً .

وأقبل من ضحى ذلك اليوم على استاذ تاريخ القرون الوسطى ، وكان من أعظم اساتذة السوربون قدراً ، وهو الاستاذ شارلي ديل . فاذا الاستاذ قد كتب على أوراق صغيرة أسئلة كثيرة وضعها أمامه ، وجعل الطلاب كلما أقبل واحد منهم على الاستاذ يرمقونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ . ويقبل صاحبنا ترافقه زوجه ، فاذا

اخذت ورقة ودفعتها الى الاستاذ نظر فيها ثم ابتسم ثم قال في صوت عذب :

— لقد أسعدك الحظ بمرافقة هذه الآنسة . حدثني اذن عن الامبراطورية العربية أيام بني أمية ، وما أرى الا انك تعرفها خيراً مما أعرفها .

واندفع الفتى في حديثه لا يلوي على شيء حتى وقفه الاستاذ قائلاً :

— حسبك ، فقد ظفرت بالدرجة العليا .

في ذلك اليوم لم يعد الزوجان الى البيت ليصيبا غداءهما ، وانما الح الفتى على صاحبته في أن يرفـّها على نفسيهما بتناول الغداء في مطعم من مطاعم الحي اللاتيني ، يجدان فيه من لين الطعام مالم يكن مقدراً ان يجداه ان عادا الى البيت . وكانت صاحبته تكره له أن يسرف فيما يبقى له من مرتبه بعد اداء ما عليه فيه من الحق ، فامتنعت عليه وألحت في الامتناع ، ولكنه مازال بها حتى استجابت له . فأصابا في ذلك اليوم غداء قلما كانا يصيبان مثله في سائر أيامهما .

وعادا بعد ذلك الى السوربون ، وان قلب الفتى ليخفق فرقاً وقلقاً ؛ وكيف لا وهو مقبل على امتحان الجغرافيا بعد قليل ؟ وكان قد قدر في نفسه أن الاستاذ الذي سيمتحنه لن يراه مقبلاً عليه حتى يرفق به ويعرف أن مثله لا ينبغي أن يسأل الا فيما يفهمه العقل وتحفظه الذاكرة دون أن يحتاج الى الابصار . يسأله في الجغرافيا السياسية او الاقتصادية أو البشرية ولا يسأله في الجغرافيا الطبيعية

مثلاً . ولكن الاستاذ يدعوه فيسعى اليه ويجلس بين يديه ويقول الاستاذ في هذه المداعبة الرفيقة التي يتكلفها الممتحنون عادة :

ــ مسيو حسين ، صف لي مجرى نهر الرون .

ويسمع الفتى هذا السؤال فيسرع اليه الوجوم ، ولكن العناد يسبق الوجوم الى عقله وقلبه جميعاً . واذا هو يرفض الاجابة على هذا السؤال في صوت لا تردد فيه ولا اضطراب .

قال الاستاذ متلطفاً :

ــ فان من الحق عليك ان تجيب حين تُسأل .

قال الفتى :

ــ ولكني لن أجيب .

قال الاستاذ :

ــ فقد اكتفيت .

ودعا طالباً آخر .

فانصرف صاحبنا محزوناً مدحوراً ، مستيقناً أنه قد اخفق في الامتحان ، وان نجحه في أول الصيف قد ذهب هباء ، مشفقاً في الوقت نفسه على صاحبته من هذا الحزن الذي سيسعى اليها من غير شك . ولكن صاحبته تخرج به من هذه الغرفة مترفقة به قائلة له في ابتسامة عذبة :

ــ وما رأيك في فنجان من القهوة تتهيأ به للقاء أستاذ الفلسفة !

وقـــال :

ــ وفيم لقاء هذا الاستاذ وقد ذهب الامتحان كله هباء؟

قالت متضاحكة :

ــ لا عليك . فقد كان هذا الممتحن غليظ الطبع قليل الحظ من الذوق .

وما زالت به حتى سقته القهوة . ثم عادت به الى السوربون ، فلقي أستاذ الفلسفة وسمع منه وقال له غير محقق في نفسه شيئاً مما سمع أو مما قال .

وراحا الى بيتهما وهو يضمر اليأس ويظهره . وهي تظهر الأمل والله يعلم ما كانت تضمر .

وتكلف صاحبنا أن يشغل نفسه عن التفكير في الامتحان بالتفكير في مناقشة الرسالة التي تم طبعها وقدمت الى السوربون والتي سيحدد لمناقشتها فيما كان يقدر موعد قريب .

ولم تتحدث اليه صاحبته في أمر هذا الامتحان ، وانما جعلت تتحدث اليه في أشياء كثيرة ليس بينها وبين السوربون وعنائها صلة ، ثم تقبل عليه ذات يوم فلا تكلمه ولا تلقى اليه تحيتها وإنما تقبّله ثم تهمس في اذنه :

ــ لقد نجحت !

ولم يصدق الفتى ما سمع حتى أنبأته بأنها عائدة من السوربون حيث أعلنت أسماء الناجحين وفيها أسمه .

وعلم الفتى بعد ذلك أن الأستاذ ريمونجون أستاذ الجغرافيا لم يكن غليظ الطبع ولا قليل الحظ من الذوق ، فلم يمنحه الصفر الذي كان يستحقه ، وانما منحه درجتين اثنتين ليعصمه من الاخفاق ان أتيح له النجح في غير الجغرافيا من مواد الامتحان .

وتريد الظروف بعد سنين أن يعقد في مصر مؤتمر للجغرافيا ، وأن يكون هذا الاستاذ من الذين مثلوا وطنهم في هذا المؤتمر ، وأن يلقاه صاحبنا في حفلة من حفلات الشاي التي تكثر حول المؤتمرات ، فاذا قدم اليه صافحه وأطال النظر اليه والى صاحبته ثم قال متضاحكاً :

ـ يخيل الي أني رأيتك !

قال الفتى مغرقاً في الضحك :

ـ نعم رأيتني ، وكدت تضيع عليّ درجة الليسانس .

قال الاستاذ :

ـ الآن ذكرتك .. ولعلك راض عني لأني لم أعطك الصفر الذي كنت له أهلاً !

ولم يضحكا وحدهما وإنما ضحك معهما من كان حولهما من الناس .

وكذلك خلص الفتى من مشكلات الليسانس وأقبل على الرسالة يتهيأ لمناقشتها مستريح القلب هادىء النفس راضي الضمير ، ولكنه لم يلبث أن روّع بوفاة الاستاذ دوركيم المشرف الفلسفي على رسالته .

وكان الفتى لاستاذه محباً وبه معجباً اعجاباً يوشك أن يبلغ الفتون ، فأدركه للخطب فيه حزن عميق . ولكن للحياة حقائقها وتبعاتها . وليس بد لهذه الرسالة من أن تناقش ، وليس بد لمناقشتها من فيلسوف متخصص في الاجتماع .

وقد استطاعت السوربون أن تندب لمناقشة الفتى في رسالته استاذاً من أساتذتها كان من تلاميذ الاستاذ الفقيد . وهو الاستاذ بوجليه . وكذلك تم الاستعداد للمناقشة ، ولكن الدكتوراه الجامعية في فرنسا لا يكفي فيها أن تقدم الرسالة وأن تناقش ، بل يجب أن يناقش الطالب قبل ذلك في موضوعين يختاران له قبل اليوم الموعود ليتهيأ للخوض فيهما .

ويتصل الفتى بأساتذته الذين سيمتحنونه ليعرف منهم هذين السؤالين . فأما الاستاذ المستشرق فلم يقترح شيئاً واكتفى برسالة الطالب عن ابن خلدون . وأما الاستاذ الفليسوف فاقترح على الفتى موضوعاً رآه في أول الأمر عسيراً أشد العسر ، ثم لم يلبث أن رآه يسيراً كل اليسر بعد أن عرف الموضوع الثاني الذي اقترحه أستاذ التاريخ . اقترح الاستاذ الفيلسوف : « علم الاجتماع كما يتصوره أجوست كونت » ، واقترح أستاذ التاريخ — وكان من مؤرخي الرومان وهو الاستاذ جوستاف بلوك — « القضايا التي رفعت على حكام الاقاليم كما يصورها بلينوس الشاب في رسائله . »

وقال الاستاذ وهو يلقي هذا الموضوع الى الفتى :

— واريد ان أناقشك في النصوص ، فلا تكتف بفهم التاريخ .

في ذلك اليوم عاد الفتى الى أهله يرعد من الخوف والسخط جميعاً. كان يظن أنه قد فرغ من اللغة اللاتينية وعنائها، واذا أستاذ التاريخ ذاك يردّه اليها ويفرض عليه أن يدرس طائفة من رسائل ذلك الكاتب اللاتيني القديم.

وأقبل الفتى على رسائل ذلك الكاتب فقرأها كلها مترجمة الى الفرنسية أولاً، واستخرج منها الرسائل التي تمسّ موضوعه فعاد اليها يدرسها في نصوصها اللاتينية درساً دقيقاً عميقاً لانه كان يعرف الاستاذ ويعلم أنه لا يحب المزاح ولا يكتفي بالقليل.

ولم يرتعد الفتى في امتحان قط الا في هذا الامتحان حين أخذ الاستاذ يناقشه في هذه الرسائل، ونسي حكام الاقاليم وقضاياهم، ولم يحفل الا بالنص اللاتيني من حيث هو نص أدبي يجب فهمه أولاً وذوقه ثانياً وتحليله ونقده بعد ذلك.

ولولا فضل من شجاعة واستحياء من الرفاق ومن زوجه التي كانت تشهد الامتحان ومن سائر النظارة لاصطكت أسنانه ذعراً وهلعاً. ولكنه ثبت للخطب على كل حال، وان رأى الاساتذة والنظارة أن فرائصه كانت ترتعد، وانه كان شديد الاضطراب، وثابت نفسه اليه حين سكت عنه أستاذ التاريخ وأخذ أستاذ الفلسفة في مناقشته وجرت ريح الامتحان له رخاء حتى رفعت الجلسة.

وخلت اللجنة للمداولة وعادت بعد لحظات فأعلن اليه رئيسها، وهو أستاذ التاريخ، أن الكلية ترشحه لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الممتازة ومع تهنئة اللجنة.

ولاول مرة سمع الفتّى تصفيق النظارة من الفرنسيين لشخصه المتضائل الضعيف. وعاد الى أهله جذلان فرحاً ، وظنّ أن قد حطّت عنه أثقال الدراسة ، وان ما بقي له منها لن يكون شيئاً ذا بال .

ولكن الأيام كشفت له عن أنه كان مغالياً في تفاؤله بل مسرفاً في الغلو. فقد بقي عليه أن يظفر بدبلوم الدراسات العليا ، وأراد حظه أن يعدّ رسالته لهذا الدبلوم باشراف استاذ التاريخ ذلك الذي أرهقه من أمره عسراً .

الفصل السابع عشر

يوم سقطت القنبلة على بيتي !

ولم يمهل صاحبنا نفسه بعد أن فرغ من امتحان الدكتوراه الا أياماً قليلة ، ثم أقبل على درس استاذ التاريخ ذاك كما تعوّد أن يفعل منذ أقام في باريس ، وكان على هذا الدرس حريصاً ولصاحبه محباً ، بل كان اعجابه بصاحب هذا الدرس عظيماً ، فلما انتهى الاستاذ من درسه سعى اليه صاحبنا خزيان وجلا ، وأنبأه بأنه يودّ لو أذن له في أن يهيء باشرافه رسالة في التاريخ القديم ينال بها دبلوم الدراسات العليا .

وقد قبل الاستاذ طلب تلميذه أحسن قبول ، وضرب له موعداً بعد درس الغد ليتحدث معه في موضوع هذه الرسالة . وانصرف الفتى راضياً مشفقاً . راضياً عن العمل مع هذا الاستاذ العظيم ، مشفقاً من مشقة هذا العمل . فقد كان الاستاذ معروفاً على حبه لتلاميذه بالشدّة عليهم وتكليفهم من الاعمال أشقّها وأشدها عسراً ومحاسبتهم بعد ذلك حساباً لا رفق فيه .

ولقي الفتى استاذه من الغد فقال له متضاحكاً :

ــ لقد وجدت لك موضوعاً قيماً حقاً لانه سيتيح لك من القراءة

ما ستنعم به أحسن النعيم موقعاً في النفوس .

قال الفتى متشوقاً :

— وما ذاك ؟!

قال الاستاذ :

— ستدرس القضايا التي اقيمت في روما على حكام الاقاليم الذين أهانوا جلال الشعب الروماني وغضّوا من شرفه كما صوّرها المؤرخ العظيم تاسيت . واؤكد لك انك ستسعد بقراءة هذا المؤرخ كما لم تسعد قط بقراءة مؤرخ أو أديب .

ثم أحصى له طائفة من الكتب يجب أن يقرأها ، وطائفة أخرى يجب أن يرجع الى بعض فصول فيها . ولم يستطع صاحبنا أن يناقش الاستاذ أو يجادله في هذا الموضوع العسير ، وانما سمع وأطاع وانصرف قلقاً مستخذياً .

ثم فكر حين خلا الى نفسه في هذه الكتب التي ينبغي ان يقرأها أو يراجع فصولاً فيها ، فرأى انه لا يستطيع أن يستعيرها لان مثل هذه الكتب لا تعار من مكتبة الجامعة لكثرة حاجة الطلاب اليها . وليس له بد اذن من شرائها وفي شرائها المعضلة الكبرى . فثمنها لا يقل عن المرتب الذي يتقاضاه اثناء شهرين كاملين !

وكتب الى الجامعة يستعينها على شراء هذه الكتب . فأبت عليه وكانت الجامعة شديدة البخل على طلابها تكرهها ظروفها المالية على ذلك اكراهاً . فهي لم تكن تعينهم على ما يعرض

لهم من المرض ، ولا على ما يحتاجون اليه من الكتب ، وانما كانت تعطيهم مرتباتهم وأجور ما يحتاجون اليه من الدروس الخاصة اذا تبينت أن ليس لهم من هذه الدروس بد . ثم تخلي بينهم وبين حياتهم يصنعون بها ما يريدون أو تصنع هي بهم ما تريد . وعلى الطلاب مع ذلك ان يثبتوا جدّهم في الدرس وتقدمهم فيه . فان ثبت لها تقصير أو قصور فليس بدّ للطالب من أن يعود الى مصر ويوفر ما تنفقه الجامعة عليه من المال .

وقد راجع صاحبنا الجامعة في أمر هذه الكتب فأذنت له بعد خطوب في ان يشتريها وينتفع بها على أن تكون ملكاً للجامعة تردّ اليها بعد عودته الى مصر .

وكذلك أخذ يتهيأ لهذا الموضوع الخطير ، وأي شيء أخطر بالقياس الى مصري مثله لم يعرف اللاتينية الا بآخرة ، ولم يسمع في مصر الا دروس الازهر في علومه الموروثة ودروس الجامعة التي ليس بينها وبين تاريخ اليونان والرومان صلة . أيّ شيء أخطر بالقياس الى مصري مثله من العكوف على هذا المؤرخ الروماني العظيم العسير يقرأه ويحصي ما فيه من اخبار هذه القضايا ، ثم يفهم هذه القضايا من نواحيها القانونية الخالصة . ثم يعرضها بعد ذلك عرضاً واضحاً مستقيماً ؟ لقد أحس في نفسه شيئاً من الندم على انه لم يختر لرسالته موضوعاً في التاريخ العربي الذي يحسنه والذي لا يكلفه قراءة في اللاتينية ولا فيما يشبه اللاتينية ، ولكنه قد ورط نفسه في هذا الموضوع وليس له بد من أن ينفذ من مشكلاته . مهما يكلفه ذلك من جهد أو عناء .

وانه لما بدأ في قراءته تلك المسيرة، اذا حدثٌ يحدث ذات ليلة فيقطع هذه القراءة فجأة ويضطره الى أن يترك باريس ويفر بنفسه وبزوجه الى جنوب فرنسا، طلباً للأمن واجتناباً للخطر. كان ذلك حين انتصفت ليلة من ليالي فبراير أو كادت تنتصف. وكان كل شيء هادئاً من حول صاحبنا، وكان قد انصرف عن القراءة وأوى الى مضجعه وأخذ النوم يسعى اليه أو أخذ هو يسعى الى النوم، ولكن النذير بالغارة الجوية يوقظ أهل البيت جميعاً، وصاحبنا شجاع لا يحفل بالغارة ولا يريد أن يظهر أهل البيت منه على ذعر أو شيء يشبه الذعر. فهو يأبى ان ينهض من مضجعه ساخراً من الغارة والمغيرين. وما أكثر ما سمع أهل باريس هذا النذير وما أكثر ما أهتم له المهتمون وسخر منه الساخرون وانجلت غمرته عن باريس دون أن تلقى منه كيداً، فما يمنع هذه الغارة أن تكون كغيرها من سابقاتها؟ وصاحبنا معتدٌ بنفسه معتزٌ بشجاعته يرى أهل البيت من حوله يتهيأون للهبوط من طابقهم السادس ليأووا الى مخبئهم ذاك، وهو ثابت في مضجعه لا يريم، ولكنه يسمع فجأة صوتاً مروعاً، وينظر فاذا هو يهبط مع الهابطين مسرعاً لا يحفل بما يمكن أن يلقاه من عقبات ولا يثوب الى نفسه الا بعد أن استقر في مجلسه من المخبأ بين اللاجئين اليه من أهل الحي، وهو مستخذٍ في نفسه ومستخذٍ من أهله، ولكن ماذا يصنع وقد كانت الغريزة أقوى من عقله وإرادته جميعاً؟

وتنجلي الغمرة ويأوي الناس الى مضاجعهم فاذا أصبحوا رأوا شراً عظيماً، فقد سقطت القنابل في الحي اللاتيني نفسه، ودمرت

أبنية قريبة من الدار التي كان يسكنها صاحبنا ، وهو يحس آثار هذا التدمير في طريقه مصبحاً الى السوربون ويسمع من أنبائه الشيء الكثير . ولم يخطر له أن في هذا الحادث ما يضطره الى ترك باريس والهجرة الى الجنوب . ولكن ظروف زوجه تفرض عليه ذلك بأمر الطبيب . فيهاجر معها الى مونبلييه مقدرين أن يقيما فيها الى أن يصل الطفل الذي كانا ينتظرانه ثم يعودان بعد ذلك الى باريس .

وهمّ صاحبنا بعد أن استقر في مونبلييه أن يدرس الحقوق ويتخرج في القانون ، يبدأ الدرس في فرنسا ويتمّه في مصر بعد أن يعود اليها . ولكن اعداد رسالته تلك شغله عن ذلك، وما أكثر ما لام نفسه وشق عليها في اللوم بأنه لم يتم ما حاول من دراسة القانون . فقد ألمت به في حياته محن وخطوب .

وكان ينظر فيرى نفسه مسؤولاً عن أسرة فيها صبيّان بريئان لم يخاصما السلطان ولم يثيرا غضبه ، وعن زوج بريئة غريبة لا شأن لها بما كان يحدث في مصر من الاحداث، ويرى نفسه مع ذلك قد اضطر الى شيء يشبه العجز عن رعاية هذه الاسرة والقيام بحقها عليه في تلك الايام . كان يذكر رغبته في درس القانون وكان يقدر أنه لو فعل لاستطاع أن يتجنب التبطل وأن يعصم هذه الاسرة مما كانت تتعرض له من البؤس والضيق . ولكن هذا حديث لم يأت وقته بعد .

أقبل الفتى اذن على درسه وأقبل في الوقت نفسه على درس

اللغة اليونانية وشاركته زوجه في هذا الدرس ، فكانت حياتهما في مونبلييه راضية حقاً ، فيها نعيم العقل بهذا الامعان في الدرس والاخذ في كل يوم بسبب جديد من أسباب المعرفة ، وفيها نعيم الامل بانتظار هذا الطفل الذي كان يسعى الى الحياة في أناة ورفق . وفيها نعيم الرضى بالقليل والقناعة بالرزق الذي مهما يكن مقتراً فيه فقد كان يقيم الاود ويعصم من الحاجة ويرضى الزوجين عن نفسهما لأنهما يحسنان التدبير والاحتمال . وكان ربما تعرضا لبعض الهم حين يوشك الشهر ان ينقضي ويوشك ما بين أيديهما من المال أن ينفد فيثبتان لذلك في صرامة لا تعرف اللين وشدة لا تعرف الدعة حتى تنجلي عنهما الغمرة ويعود اليهما اليسير العسير مع أول الشهر ان جاز أن يوصف اليسير بأنه عسير .

وكان الفتى قد أرسل نسخاً من رسالته عن ابن خلدون ى صديق له في مصر بقيت له بعد أن أخذت السوربون خمسين ومئة نسخة ، وأخذت الجامعة عشرين نسخة ، وأهدى إلى بعض الرفاق والاصدقاء عدداً آخر من النسخ ، وبقي له نحو مئة نسخة من هذه الرسالة ، فأرسل الى صديقه ذاك رحمه الله ليتصرف فيها كما يحب . ومضى على ارسال هذه النسخ وقت غير قصير حتى نسيها الفتى ، ولكنه يتلقى ذات ضحى كتاباً من صديقه ذاك ومعه حوالة على أحد المصارف بمقدار من المال لابأس به كاد يبلغ عشرين جنيهاً .

ما كان أسعد ذينك الزوجين بهذا الكتاب وبما حمل اليهما من

معونة ، كانا في أشد الحاجة اليها ، لاسيما وقد قرب مقدم الطفل المنتظر ، ولا بد من التهيؤ للقائه ومن لقائه حين يقبل في اكرام له وعناية به وحفاوة تلائم ما كانا يجدان في مقدمه من السعادة . وكانا ربما أدركهما حزن عميق يخفيه كل منهما على صاحبه رفقاً به واشفاقاً عليه . فكانت هذه المعونة الطارئة منقذاً لهما من هذا العذاب .

وفي يوم من أيام شهر يونيو أقبلت أمينة مع الصبح ، واختلط صياحها بغناء الطير المستيقظة . فكان لهذه الموسيقى الحلوة موقع أي موقع في قلب الزوجين أنساهما أو سلاهما عما وجدا في ليلتهما تلك من روع وما تعرضا له من هول .

ولم تجد أمينة أبويها حزينين ولا مهتمين ولا مضيقا عليهما في استقبال زائرهما العزيز . فقد أتاح لهما ابن خلدون رحمه الله من السمعة ما مكنهما من أن يلقيا ابنتهما كأحسن ما يكون اللقاء .

وانقضى الصيف ثقيلاً طويلاً يضطرب فيه الزوجان بين السعة في أول الشهر والضيق في آخره ، ولكنهما يستعينان على السعة والضيق جميعاً بتنشيء أمينة من جهة والجد في اعداد الرسالة ودرس اليونانية من جهة أخرى . ولم يقبل شهر سبتمبر حتى عاد الزوجان ومعهما جوهرتهما الى باريس .

وكان صاحبنا يقدر أنه سيفرغ الفراغ كله لرسالته اذا استقر في باريس ليلقى أستاذه من أول العام الجامعي مستعداً للتحدث

اليه بما قرأ وما فهم وما يريد أن يفعل ، وليتلقى منه ما يمنحه من التوجيه والارشاد .

ولكنه لا يكاد يبلغ باريس حتّى يصرف عن الرسالة صرفاً عنيفاً ، ويشغل عنها شغلاً متصلاً أكثر من شهرين . فهذا رفيق مصري من رفاقه في الدرس وصديق من أصدقائه قبل البعثة وبعدها قد ألمّ به مرض عصبي خطير وليس له في باريس من يرعاه أو يهتم لشأنه . وقد انتقلت ادارة البعثة الجامعية من باريس الى لندرة . فلم يكن بد للفتى من أن يعنى بصديقه وزميله في الدرس ويقوم منه مقام مدير البعثة وهو يعرضه على الطبيب بعد الطبيب ويكتب في شأنه الى مدير البعثة مرة والى الجامعة في القاهرة مرة أخرى . وينفذ أمر الاطباء فينقل صديقه من باريس الى حيث يستطيع أن يعيش خارج المدينة في الهواء الطلق والحياة الهادئة التي لا عجيج فيها ولا ضجيج . وهو مضطر الى أن يزوره بين حين وحين ، وقد يدعوه فجأة صاحب الفندق الذي يقيم فيه المريض فيسرع اليه ويسمع من أنباء صديقه مايملأ قلبه لوعة وحزناً ويثير أمامه من المشكلات مالا يعرف الى النفوذ منه طريقاً . وهو في أثناء هذا كله يتلقى الرسائل المتناقضة من الجامعة ومن مدير البعثات ، ويتلقى المال القليل لينفق منه على المريض الذي كان يسرف في الانفاق ، ولم تكن حاجاته تنقضي ، ويتلقى في الوقت نفسه من الجامعة مطالبته بتأدية الحساب الدقيق عما أنفق ، ولا تنجلي عنه هذه الغمرة حتّى يتلقى أمر الجامعة باعادة الصديق المريض الى القاهرة .

وفي أثناء هذا كله تضع الحرب أوزارها وتعلن الهدنة، ويبتهج الفرنسيون ونزلاء فرنسا بمقدم السلم. ولا يكاد صاحبنا يمضي فيما عاد اليه من الدرس بعد تلك المحنة في صديقه الكريم عليه الاثير عنده حتى تأتي الانباء من مصر فتصرفه مرة اخرى عن رسالته وأعدادها صرفاً عنيفاً. ولكنه لم يكن حزيناً ولا مروّعاً، وإنما كان سعيداً يملأ القلب غبطة والضمير رضى والنفس ثقة واعجاباً. فقد جاءت الانباء بأن مصر تطلب استقلالها الى المحتلّين المنتصرين.

ثم جاءت الانباء بأن مصر تلقى من المحتلين عنتاً أي عنت وجحوداً أي جحود، وبأن بعض المصريين قد أخرجوا عنوة من وطنهم واتخذوا رهائن في مالطة، وبأن مصر قد غضبت لابنائها وثارت بأعـــدائها.

فتقع هذه الانباء كلها من قلب الفتى ومن قلوب زملائه الطلاب المصريين موقع الماء من ذي الغلة الصادي. ليس الاوروبيون وحدهم اذن هم الذين يثورون غضباً للكرامة الوطنية وطموحاً الى استقلال الوطن. بل ان مصر الافريقية تثور هي أيضاً كما ثار الانجليز والفرنسيون والامريكيون وأمم غربية أخرى.

ما أوسع الآمال التي ملأت قلوب أولئك الطلاب الغرباء وما أعظم الكبرياء التي ملأت نفوسهم. وما أكثر ما أضاعوا من الوقت في أحاديث لا تنقضي عن هذا كله. وما أكثر ما أعرضوا عن الدروس ليفرغوا لحديث الثورة والثائرين.

وكان صاحبنا مؤثراً للعزلة لا يلقى رفاقه المصريين الا قليلاً . فقد كثر لقاؤه لهم وخوضه معهم في أحاديث الثورة والثائرين منذ جعلت الصحف الفرنسية تنشر أنباء مصر وما يجري فيها من الاحـــداث .

ولكنه على هذا كله لم يهمل الرسالة ولم يعرض عن درس أستاذه المشرف عليها ، وانما مضى في عمله حفيّاً به حريصاً على الجلد فيه كأن أنباء مصر قد زادته إقداماً الى اقدام وجداً الى جد . وهي على كل حال قد شوقته أشد التشويق إلى أن يتم درسه ويعود الى مصر ليشهد الاحداث عن كثب ؛ ومن يدري لعله يستطيع أن يشارك في بعضها مما يتاح له أن يشارك فيه .

ولم ينس صاحبنا قط كيف كان يتلقى قارئته مع الصبح فيغرق معها في قراءة الفقه المدني والفقه الجنائي والمدني الروماني في كتابي المؤرخ الالماني العظيم ممش . ولم يكن الفتى يصدق بعد أن مضت على ذلك السنون انه قرأ هذه المجلدات الاحد عشر في وقت قصير على مافي قراءتها من العسر وكثرة مافي هذه المجلدات من التعليقات ومن النصوص اللاتينية .

وما أكثر ما كان يسمع للقارئة وقد حمل أمينة بين ذراعيه ليتيح لزوجه أن تفرغ لما كان ينبغي أن تفرغ له من شؤون البيت .

وما أكثر ما كان يملي فصول هذه الرسالة وصبيته بين ذراعيه يمشي بها في غرفته الضيقة مملياً وقارئته تسمع منه وتكتب عنه وربما طلبت اليه أن يريح نفسه من الاملاء ويريحها من الكتابة

دقائق ، وأخذت منه الصبية فحملتها ومشت بها في الغرفة وغنت لها بعض ما يغنى للاطفال وأتاحت له بذلك أن يجلس ويستريح ، وزوجه في أثناء هذا كله في مطبخها مقبلة على تهيئة الغداء أو العشاء .

وفي ذات يوم يقبل الرفاق فينبئونه بأن سعداً رحمه الله وأصحابه سيصلون الى باريس وانهم يتهيأون لاستقبالهم ، ويطلبون اليه أن يشاركهم في ذلك فيعتذر لانه لايحسن من هذه الأمور شيئاً .

ولكنه ينتظر حتى اذا استقر الوفد في باريس ذهب ذات ضحى الى حيث كان أعضاؤه يقيمون، فلقي سعداً رحمه الله بعد أن لقي رفاقه ، وفيهم أستاذه الرفيق به العطوف عليه أحمد لطفي السيد .

وفيهم صديقه المشجع له الذي طالما شمله بالعناية والرعاية حين كان طالباً في الجامعة ، وكاتبا في الجريدة . ثم شمله بالعناية والرعاية حين كان عضواً في البعثة الجامعية بباريس وهو عبدالعزيز فهمي رحمه الله .

وفيهم غير هذين الصديقين الكريمين آخرون كان يعرفهم بأسمائهم، ثم اتصلت المودة بينه وبينهم بعد ذلك . كما اتصلت الخصومة أيضاً بينهم وبينه بعد ذلك .

لقي هؤلاء جميعاً ومعه زوجه ثم أذن له في لقاء سعد ، وكان لسعد عنده دين منعه الحياء من أدائه حين كان طالباً في الجامعة وأتيح له أن يؤديه بعد أن كاد يتم دراسته في باريس .

الفصل الثامن عشر

«أطول الناس لساناً!»

وكان دين سعد عند صاحبنا قديماً يرجع تاريخه الى العام الذي قدم فيه رسالته عن أبي العلاء الى الجامعة وظفر بعد مناقشتها بدرجة الدكتوراه ، وكثر حديث الصحف والناس عن هذه الرسالة وصاحبها . وفي تلك الأيام قدم عضو من أعضاء الجمعية التشريعية اقتراحاً يطلب فيه أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها خرّجت ملحداً هو صاحب رسالة « ذكرى أبي العلاء » .

وكان سعد رحمه الله رئيس لجنة الاقتراحات فيما يظهر . فلما عرض عليه هذا الاقتراح دعا المقترح للقائه وطلب اليه أن يعدل عن اقتراحه ، فلما أبى قال له سعد ان أصررت على موقفك فان اقتراحاً آخر سيقدم وسيطلب صاحبه الى الحكومة أن تقطع معونتها عن الأزهر لأن صاحب هذه الرسالة عن أبي العلاء تعلم في الازهر قبل أن يتعلم في الجامعة .

واضطر الرجل الى أن يسترد اقتراحه وسلمت للجامعة معونتها ولم يتعرض الفتى لشر . وكان الاستاذ أحمد لطفي السيد هو الذي أنبأ صاحبنا بهذه القصة وطلب اليه أن يسعى الى سعد بشكر هذا الجميل.

ولكن الفتى استحيا اذ ذاك فلم يسع الى سعد وأين هو من سعد ؟

فلما أتيح له لقاء رئيس الوفد في باريس شكر له تلك العارفة وأثنى على جهده الخصب في خدمة مصر وتضحيته في سبيل الوطن والشعب . فسمع منه سعد ولكنه أجابه في فتور وضيق بأن جهده وجهد أصحابه وجهد الشعب كله لن تغني عن الوطن شيئاً . ألا ترى الى كل هذه الأبواب التي غلقت من دوننا ؟ وها نحن أولاء قد وصلنا الى باريس فقطعت علينا الطريق الى مؤتمر الصلح وألقيت الحجب الكثاف بيننا وبين ممثلي الدول المشتركة فيه ؟

قال الفتى :

ــ ولكن هذه الجهود توقظ الشعب وتنبهه لحقه وتدفعه الى المطالبة به والجهاد في سبيله .

قال سعد محولاً للحديث عن مجراه :

ــ ماذا تدرس في باريس ؟

قال الفتى :

ــ أدرس التاريخ .

قال سعد :

ــ أومؤمن أنت بصدق التاريخ ؟

قال الفتى :

ــ نعم اذا أحسن البحث عنه والاستقصاء له وتخليصه من الشائبات .

قال سعد :

ـ أما أنا فيكفي أن أرى هذا التضليل وهذه الاكاذيب التي تنشرها الصحف في أقطار الارض ويقبلها الناس في غير تثبت ولا تمحيص لأقطع بالاّ خبيل الى تصفية التاريخ من الشائبات ، ولأقطع بعد ذلك بألا سبيل الى استخلاص التاريخ الصحيح من هــذه الشائبات . وانظر الى ما ينشر عنا في مصر وفي باريس وحدثني كيف تستطيع أن تستخلص منه التاريخ الصحيح !

وهمّ الفتى أن يتكلم ولكن سعداً مضى في حديثه قائلاً :

ـ لقد أقبلنا الى باريس والأمل يملأ نفوسنا فلم نقم فيها أياماً حتى استأثر بنا اليأس .

قال الفتى :

ـ وكيف نيأس وقد أيقظتم الشعب فاستيقظ ودعوتموه فاستجاب ؟

قال سعد :

ـ وماذا يستطيع الشعب أن يصنع وهو أعزل لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فضلاً عن أن يثور بأصحاب القوة واليأس ؟

قال الفتى :

ـ هو الآن أعزل ولكنه سيجد السلاح غداً .

قال سعد :

ـ وأين يجــده ؟

قال الفتى :

ــ ان الذين يهربون لنا الحشيش يستطيعون أن يهربوا لنا الأسلحة .

فأغرق سعد في الضحك وقال وهو ينهض :

ــ ألا تعلم ان الذين يراقبون تهريب الحشيش سيراقبون تهريب الأسلحة ؟

وانصرف الفتى عن سعد فلم يره الا بعد عام ، بل بعد أكثر من عام . ولم يلقه سعد في تلك الزيارة الثانية بباريس لقاء الهاش له المرحّب به ، وانما لقيه في شيء من الفتور . قال له وسمع منه ولكنه لم يقل شيئاً ذا بال ، ولم يسمع منه شيئاً ذا بال وانما كان لقاء قصيراً قوامه المجاملة ليس غير .

وقد عرف الفتى مصدر هذا الفتور ، فلم يضق به ولم يبتهج له وانما هز رأسه ورفع كتفيه .. وكان مصدر هذا الفتور أن جماعة من تلاميذ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده أحيوا ذكرى وفاة أستاذهم في الجامعة ، وخطب صاحبنا في ذلك الحفل فزعم أن مصر مدينة بما أتيح لها من اليقظة لثلاثة رجال لا ينبغي أن تنساهم . أولهم : الاستاذ الامام الذي أحيا الحرية العقلية .

والثاني : مصطفى كامل الذي أذكى جذوة الحرية السياسية .

والثالث : قاسم أمين الذي أحيا الحرية الاجتماعية .

وقرأ سعد هذا الحديث .. فوجد على الفتى لانه لم يذكره بين هؤلاء العظماء .

وتوالت خطوب السياسة بعد ذلك ، وكان صاحبنا أطول الكتاب لساناً وأجرأهم قلماً في مهاجمة سعد ونقد سياسته قبل أن يلي الحكم وبعد أن وليه ، وبعد أن اضطر الى اعتزاله . وأصاب الفتى من هذه الخصومة مكروه أي مكروه ، ولكنه لقي سعداً بعد ذلك للمرة الثالثة والاخيرة في دار شوقي رحمه الله .

كان شوقي يستقبل الشاعر الهندي العظيم تاجور . وقد دعا لهذا الاستقبال من شاء الله أن يدعوهم من أصحاب الثقافة ورجال السياسة والحكم . وكان صاحبنا أحد المدعوين . وانه لبين جماعة من أصحابه واذا سعد يقبل فيخفّ الناس جميعاً للقائه ويهمّ صاحبنا أن يتأخر ولكن أصحابه يدفعونه دفعاً ، وكان أشدهم في ذلك الشيخ عبد العزيز البشري رحمه الله . ويجد الفتى نفسه يصافح سعداً ويسمع سعداً يلقاه لقاء حسناً . ثم يعود الناس الى أماكنهم ويقيم سعد ساعة أو بعض ساعة ثم ينصرف الى مجلس النواب وكان له رئيساً .

وقد كاد الفتى يلقى سعداً مرة أخرى لو أريد الفتى على أن يلقى سعداً مرة أخرى ، ولكنه امتنع وألح في الامتناع فلم يتم هذا اللقاء . كان ذلك حين أراد بعض النواب الوفديين أن يثير قصة الشعر الجاهلي مرة أخرى في المجلس . فردّه سعد عن ذلك قائلاً :

ــ لقد انتهى هذا الموضوع فلا معنى للعودة اليه .

قرأ صاحبنا ذلك في الصحف فلم يكد يحفل به أو يلقي اليه

بالاً ، ولكن الاستاذ احمد لطفي السيد كان مدير الجامعة ورفيقاً بصاحبنا . فألح عليه في أن يمر بدار سعد ويترك بطاقته وعسى أن يلقاه فيشكر له كلمته الطيبة في مجلس النواب . ولكن صاحبنا أبى وأصر على الاباء ، وقال ان سعداً لم يزد على أن أدى واجبه وكفّ سفيهاً أحمق من نوابه عن سفهه وحمقه .

واشتد الجدال في ذلك بين الاستاذ وتلميذه ولكنهما لم يصلا الى شيء، فاحتكما في المساء الى عبد العزيز فهمي رحمه الله . ولم يلبث هذا أن قضى لصاحبنا في غير مشقة ولا جدال . وما أسرع ما استحال الامر كله الى دعابة بين الاستاذين الكبيرين حول ما كان يملأ قلب عبد العزيز فهمي وعقله ويجري على لسانه من سخط على سعد ، وانكار لكل ما كان يصدر عنه من قول أو فعل ، لا لشيء الا لأنه صدر عن سعد .

وكذلك كانت صلة صاحبنا بسعد يسيرة كل اليسر في ظاهرها ، عسيرة أشد العسر في حقائقها ودخائلها . جرّت على الفتى شراً كثيراً ، وأتاحت له مع ذلك خيراً كثيراً ، وتقلبت به بين ضروب من الرضى والسخط ، وفنون من الامل واليأس وألوان من الشدة واللين . ولكن حديث هذا كله لم يأت ابانه بعد .

فلنعد إلى صاحبنا في باريس لنراه مقبلاً على حياته ، غارقاً في مشكلتها مثقلاً بأعبائها . يعدّ رسالته ويختلف إلى دروسه ويلقى أستاذه ويحتمل ضروباً من الجهد في اجراء حياة أسرته على ما ينبغي أن تجري عليه من هذه السعة اليسيرة التي تقيم الاود

ولا تعرض للبأس أو الشقاء .

وأقبل الصيف وقد قدم صاحبنا رسالته الى السوربون فرضيت عنها ، ولكنه لم يرسلها الى الجامعة ولم تسأله الجامعة عنها ، وانما أقبل على امتحانه فنجح فيه نجاحاً حسناً وظفر بالدبلوم وأتم بذلك اداء واجبه الذي كلفته الجامعة أن يؤديه . وآن له أن يعود الى مصر .

ولكن عودته الى مصر أثارت بينه وبين المدير الانجليزي للبعثة خلافاً طويلاً ثقيلاً سخيفاً في وقت واحد . فقد كان نظام البعثة يقضي بأن يعود الطالب الى مصر على نفقة الجامعة ان أتم دراسته على الخطة المرسومة له . ولكن صاحبنا لن يعود وحده ، بل ستصحبه زوجه ، فعلى نفقة من تعود هذه الزوج ؟

هنا حار المدير الانجليزي للبعثة . فكتب الى الجامعة مستفتياً وأذنت له الجامعة في أن يعيد الزوجين جميعاً . ولكن الزوجين لن يستطيعا العودة الا اذا عادت معهما أثقالهما ، وكانت الكتب أهم هذه الاثقال . فهي أكثر واضخم من أن توضع في الحقائب وكثير منها ملك للجامعة سيستقر في مكتبتها آخر الامر ، والانتقال من باريس الى القاهرة لا يتم بمجرد أن يتسلم المسافر بطاقات السفر في القطار والسفينة ، ولكنه يحتاج الى فضل من النفقة ، فمن يؤدي هذا الفضل من النفقة ؟ وكذلك احتاج مدير البعثة أن يكتب الى الجامعة مستفتياً مرة أخرى ، وليس شيء أضيع للوقت ولا أقل للجد ولا أدعى الى السأم والضيق من الجدال الطويل المتصل حول الموضوع السخيف الذي لا خطر له ولا طائل فيه .

وكم ضاق الفتى بما كان يكتب وما كان يتلقى من الرسائل حول هذا السخف الذي لا يغني عنه شيئاً ، ولكنه وصل مع زوجه الى مارسيليا عشية اليوم الذي حدد لابحار السفينة .

ولا يكادان يصلان الى هذه المدينة حتى يعلما ، ويا ثقل ما علما ، ان سفينتهما لن تبحر من الغد ، لان اضراباً يحول بينها وبين الابحار . واتصل الاضراب يوماً ويوماً ويوماً ثم اتصل بعد ذلك حتى بلغ خمسة وعشرين يوماً . وليس مع صاحبنا وزوجه وطفلهما ما ينفقان ، ولا أمل في الاتصال بمدير البعثة ولا سبيل الى الاتصال المباشر بالجامعة . فليقترض اذن من زميله ذاك الذي سيعود معه على السفينة نفسها والذي ينتظر مثله أن ينقضي الاضراب والذي لا يخلو جيبه من مال كثير لا لانه كان غنياً ، بل لانه كان مدبراً مقتصداً أروع تدبير واقتصاد . وقد أخذ يقترض وبدأ الزوجان حياتهما المستقلة بالدين وأي دين .

ويبلغان الاسكندرية بعد لأي وقد شق عليهما السفر ، وعنف بسفينتهما البحر ، ونفد ما اقترضا من المال . ولكن الفتى كان قد كتب الى صديقه الكريم عليه المؤثر له حسن باشا عبد الرازق محافظ الاسكندرية اذ ذاك بمقدمه . فلا تكاد السفينة ترسو حتى يقبل رسل المحافظ الصديق فيستخلصوا الاسرة من الضيق والشدة والحيرة الى السعة والدعة والاطمئنان في ذلك البيت الرائق الجميل الذي كان المحافظ قد اتخذه في رمل الاسكندرية .

وفي هذا البيت تقيم الاسرة مع الصديق الكريم رحمه الله

اسبوعاً تحب أن تمضي الى القاهرة ولكنها تؤثر الاقامة في الاسكندرية وتشفق من شظف العيش الذي ينتظرها متى هبطت من القطار. ومن لها بالقطار وصاحبنا لا يملك أجره ولا يجرؤ على أن يتحدث الى صديقه في ذلك ولا يستطيع أن يكتب الى اخيه في القاهرة لان زوجه لا تكتب العربية ولان أخاه لا يقرأ الفرنسية ...

وان الزوجين لفي سمرهما مع المحافظ الصديق ذات ليلة، واذا هو ينبئهما بأن قد آن لهما أن يسافرا وآن للفتى أن يقدم نفسه الى الجامعة التي تعرف وصوله الى مصر وتنتظر مقدمه اليها.

وقد أعدّ كل شيء لسفرهما في القطار الذي يبرح الاسكندرية ضحى الغد فاذا اصبحا وفرغا من طعام الافطار أقبل الصديق متلطفاً يقول لزوج الفتى:

ـ أتعرفين النقد المصري ؟

قالت متضاحكـــة :

ـ لا.

ـ ها هو ذا فادرسيه على مهل.

ثم ودعهما وانصرف مسرعاً فركب عربته إلى مكتبه.

وتدرس زوج الفتى هذا النقد، فاذا الصديق قد جمع لهـــا أوراقاً تصوّر النقد المصري الى العشرة من الجنيهات. وقـــد فهم الزوجـــان عن صديقهما، وأضافا في حسابهما ديناً لم يؤدّ قط الى دين ما أسرع ما طالب صاحبه باداثه ومعه فوائده على

قلة ما لبث الدين في ذمتهما من الاسابيع ..

ويتجاوز النهار نصفه قليلاً ويبلغ القطار محطة القاهرة وينظر الزوجان فاذا هما في غمرة من الاهل والصديق ، ومنذ ذلك اليوم اتصلت اسباب حياتهما الجديدة بأسباب مصر .

الفصل التاسع عشر

رفضتُ أن أحضر مؤتمراً للعميان !

وبدأت حياة الزوجين في مصر متعثرة يبسم لها الامل فتخف وتشرق. وتعبس لها الضرورة فتثقل وتظلم. كانا ضيفاً على أخي الفتى ، ولكنهما كانا يعلمان أن هذه الضيافة لا ينبغي لها أن تطول. وأن ليس لهما بدّ من أن يستقلا بحياتهما ولا يكونا عيالاً على قريب أو غريب. واستقلال الافراد كاستقلال الجماعات ، لا يهبط لهم من السماء ولا ينجم لهم من الارض ، وانما يُكتسب اكتساباً ، وتبتغي اليه الوسائل ، وتسلك اليه السبل التي تستقيم بأصحابها حيناً وتلتوي بهم حيناً آخر. وكانا يعرفان هذا كله ويعرفان السبيل الى استقلالهما ، ولكن صاحبنا لم يكن يملك الوسائل الى سلوك هذه السبيل ... فهو لا يملك درهماً ولا ديناراً. وقد بخلت الجامعة عليه بما كانت تمنحه الناجحين من طلابها اذا عادوا الى مصر من المكافأة ليهيئوا أنفسهم لاستقبال حياتهم الجامعية ؛ وأكبر الظن أنها لم تبخل عليه بهذه المكافأة عن رضا واختيار ، بل عن كره واضطرار. فقد رأى صاحبنا نفسه اذن مضطراً الى أن يقترض من المال ما يتيح لزوجه وله أن يأويا الى دار يعيشان فيها كما يريدان ، لا كما يراد لهما.

وهوّن عليه الامر صديق كريم هو الاستاذ محمد رمضان رحمه الله ، صحبه الى شركة كانت تسمى شركة التعاون المالي ، وضمنه عند هذه الشركة ، فأقرضته مئة من الجنيهات واقتطعت منها الفائدة وأعطته سائرها . وظن الفتى حين وقع في يده هذا المال انه أصبح على رأس ثروة ضخمة . فهو لم يملك مثل هذا المقدار من المال قبل اليوم . وقد أتى عليه حين من الدهر كان أقصى ما يمكن أن يقع في يده من المال لا يبلغ الجنيه غالباً ولا يتجاوزه بحال من الاحوال . ثم أتى عليه حين آخر من الدهر كان أقصى ما وصل اليه من المال لا يزيد على عشرين جنيهاً .

أتيح له هذا المقدار الذي كان يراه ضخماً حين نجح في الجامعة بمصر وحين نجح في السوربون بباريس . وهو اليوم يعد الجنيهات التي صارت اليه بالعشرات الكثيرة . على أنه لم يلبث ان رأى هذه العشرات تتناقص شيئاً فشيئاً . فقد أدى دينه الى زميله ذاك الفتى الذي أعانه على انتظار آخر الاضراب في مارسيليا .

ومر مع زوجه بمصرف الكريدي ليونيه ، لا أدري كيف كان ذلك . فقرأت عليه زوجه اعلاناً ينبيء بأن المصرف يعرض منذ اليوم للبيع سهاماً في قرض فرنسي جديد . ومن مزايا هذه السهام أن القرعة تجري بينها من حين الى حين ، وأن بعض هذه السهام يمكن أن يربح مليوناً من الفرنكات . وكانت قيمة هذا المليون في تلك الايام عشرين ألفاً من الجنيهات . ولم يسمع الفتى هذا الاعلان حتى عزم على زوجه لتدخلن معه المصرف وليشترين

لها سهماً من هذه السهام ، وقد أبت عليه أشد الاباء ولكنه ألحّ وغلا في الالحاح حتى استجابت له كارهة . وما هي الا ساعة حتى رأى الفتى زوجه مسهمة في هذا القرض الفرنسي ، وجعلت الآمال تداعبه وجعل يقيس ما بقي له من مال الى الالوف العشرين التي يمكن أن تساق الى زوجه ان ربح سهمها بعد حين ، فيأخذه شيء يشبه الدوار .

ولكن الاقتراع الاول قد أجري وربح فيه سهم مصري لم يكن سهم زوجه وانما كان يملكه مظلوم باشا رحمه الله ...

وما أكثر ما ضحك الزوجان حين قرأا ذلك النبأ وحين صح لهما ما كانا يسمعان من أن المال يدعو المال ومن أن العسر لا يدعو اليسر الا قليلا .

وقد مرت الشهور والاعوام وجعل الفرنك ينحل ويتضاءل وتنحل معه قيمة هذه الاسهم وتتضاءل ، حتى بلغت قيمة الاسهم الذي اشتراه الفتى لزوجه سبعة جنيهات ثم خمسة ثم انتهى الى ثلاثة . ثم انقطعت أنباؤه وذاب كما يذوب الملح في الماء . ومهما يكن من شيء فقد نظر صاحبنا بعد اداء دينه وشراء سهمه الى ما بقي له من المال ، فاذا هو لا يبلغ العشرات الخمس . واذا هو أقصر يداً وأضيق ذراعاً من أن يبلغ ما يريد ويؤسس لزوجه ولنفسه داراً يرضيان عنها وعما فيها . ولا بد لهما مع ذلك من دار ومن أثاث في تلك الدار ، فاستأجر لهما الاستاذ محمد رمضان داراً في حي السكاكيني وعمدا ومعهما الاستاذ محمد رمضان الى سقط المتاع ، فاشتريا منه ما يقوم بأمر تلك الدار من الاثاث .

وما أشد ما شقيت نفس الفتى حين كان يرى زوجه تغالب دموعها وهي تختار بين ذلك السخف الذي لم يكن بد من الاكتفاء به حتى يجعل الله بعد عسر يسراً وبعد ضيق سعة وبعد حرج فرجاً .

وقد اوى الزوجان آخر الامر الى دارهما وخادعا نفسيهما عما فيها واطمأنا الى ما لم يكن بد من الاطمئنان اليه .

وكان صاحبنا قد صرف هذا الوقت الطويل عما كان ينبغي أن يفكر فيه منذ بلغ القاهرة . فستبدأ الدراسة في الجامعة بعد أيام ، وليس له بدٌّ من أن يعد درسه الاول ويتهيأ لالقائه في ذلك الحفل الذي سيقدمه فيه الى المستمعين عضو من أعضاء مجلس الادارة . وما أسرع ما عاد الى الكتب ، وعاد الصوت العذب الى القراءة وعاد اشتراك الزوجين في هذه الحياة الصافية النقية التي لا يكدرها المال ولا ينغصها الحرمان والتي تسلى عن اليأس والبؤس والحرمان .

وجاء اليوم الموعود وأقبل صاحبنا الى قاعة الدرس فتلقاه ثروت باشا رحمه الله وقدمه الى المستمعين أحسن تقديم . وألقى صاحبنا درسه فرضي عنه الناس ورضي عنه هو أيضاً .

وعاد الزوجان من ليلتهما تلك موفورين محبورين قد ملأ الامل قلبيهما وأزالا عنهما وضر ما احتملا من شقاء . وكان حظهما من السعادة والغبطة والرضا أعظم وأعمق بعد أن ألقى صاحبنا درسه الثاني .

وكان تاريخ اليونان هو الموضوع الذي اختاره صاحبنا لدروسه

في هذا العام ، ولا سبيل الى الاخذ في درس التاريخ الا اذا قُدّم بين يديه وصف جغرافي للبلاد التي يدرس تاريخها ، فكان على صاحبنا أن يعرض الوصف الجغرافي لبلاد اليونان . وشهد الله لقد عرض هذا الوصف فملك قلوب الذين استمعوا له وملأ نفوسهم رضا عنه واعجاباً به . وهو لم يصنع في اعداد هذا الدرس الا أن سمع لزوجه وأطاع .

أرادت زوجه أن تفهمه الوصف الجغرافي لبلاد اليونان ، فأخذت قطعة من الورق وصاغتها في شكلها على نحو ما صاغت الطبيعة تلك البلاد . ثم أرادت أن تصوّر ما في هذه البلاد من الجبل والسهل الذي يضيق حيناً ويتسع حيناً ومن البحار التي تأخذها من أكثر جهاتها ، فصورت ذلك بارزاً في هذه القطعة من الورق ثم اخذت يد الفتى وجعلت تمرّها على هذه الورقة بعد أن افترضت معه أنها تبدأ من الجنوب وتمضي الى الشمال وتنحرف مرة الى الشرق ومرة الى الغرب لتبين له مواقع البحر ، ولتبين له الاماكن التي تضيق حيناً وتتسع حيناً ، والتي كانت تقوم فيها المدن القديمة . وما زالت به حتى فهم ذلك حق الفهم وأعاده عليها فاطمأنت اليه .

وكان أول ما عجب له الموظفون في الجامعة أن صاحبنا طلب قبل الدرس أن تعرض الصورة الجغرافية لبلاد اليونان في قاعة الدروس . سمع الموظفون ذلك فأنكروه ، ولكنهم أضمروا انكارهم وأجابوه الى ما أراد . واقبل الفتى على مجلسه فأنبأ المستمعين بأنه سيصف لهم بلاد اليونان من جنوبها الى شمالها ، وليس عليهم الا أن يتبعوه بأبصارهم على هذه اللوحة المصورة . ثم أخذ في الحديث

فلم يلجلج ولم يتردد . والطلاب يسمعون بآذانهم ويتبعون بأبصارهم حتى انقضت ساعة الدرس وقد أتم الفتى ما أراد من الوصف الجغرافي لبلاد اليونان .

وكان ثروت باشا حاضراً هذا الدرس ، فلما تفرق الطلاب دعا الفتى اليه فأشبعه ثناء وتقريظاً وتشجيعاً .

ولم تمض أيام بعد تلك الليلة السعيدة حتى أقبل على دار الفتى ذات ضحى شاب من موظفي القصر فأنبأه بأنه قد أقبل يدعوه للقاء رئيس الديوان .

قال الفتى :

ــ وماذا يريد مني رئيس الديوان السلطاني وأنا لم أعرفه ، وما أظنه رآني قط ؟

قال الموظف :

ــ لا أدري ، ولكنه أمرني أن أدعوك للقائه ، وأن أصحبك الى مكتبه .

وبعد ساعة كان الفتى عند رئيس الديوان شكري باشا ، رحمه الله ، فرأى رجلاً سمح النفس عذب الحديث خفيف الظل ، له مشاركة في الادب العربي ، ولكن في الادب العربي الذي كان الناس يحبونه في القرن الماضي . فهو كان يتحدث عن الجناس والطباق وحسن الفكاهة وبراعة التورية ، ويروي لكل هذا أمثلة من الشعر المتأخر لم يحفظ الفتى منها الا بيتاً واحداً لانه لم يكد

يسمعه حتى غلبه الضحك على ما كان ينبغي له من الادب والوقار في ذلك المجلس المهيب. وضحك شكري باشا لضحك الفتى وقال في نغمة لا تخلو من حزن :

ــ كان هذا البيت يملؤنا رضا واعجاباً وها أنتم أولاء شباب اليوم تضحكون منه وتتندرون به وبأمثاله. والبيت هو :

أخذ الكرا مني وأحرمني الكرى
بيني وبينك يا ظلوم الموقف

ويجب أن تقرأ الكرا مكسور الكاف في أول البيت وهو الاجر ومفتوح الكاف في آخر الشطر الاول وهو النوم وأن تعرف أن الموقف هو ذلك المكان الذي كانت تجتمع فيه الحمر لتحمل الناس الى حيث يريدون من المدينة.

والشاعر يريد أن يقول ان صاحب الحمار قد أخذ منه الاجر واشتط عليه فيه فذاد عنه النوم ثم هو يشكو من ظلم صاحب الحمار ويجعل موقف الحساب يوم القيامة بينه وبينه لينصفه الله منه.

وظاهر ان الجناس بين الكرا والكرى والتورية بالموقف لموقف الحمر هما مصدر الجمال الذي فتن رئيس الديوان وأضحك الفتى ؛ ولا عليك من هذه الهمزة التي زيدت في حرمني فقد دعت اليها ضرورة الوزن. والضرورات تبيح المحظورات.

وطال مجلس الفتى عند رئيس الديوان حتى اذا أقبل بعض الزائرين ، استأذن في أن ينصرف فأذن له الرئيس وهمس في أذنه :

ــ ان مولانا يحب أن يراك.

ولم يعرف صاحبنا كيف يقول ولكنه لم يمس من ذلك اليوم حتى عاد اليه موظف القصر يحمل اليه كتاباً من كبير الامناء بأن المقابلة التي التمس التشرف بها قد حدد لها تمام الساعة الحادية عشرة من صباح غد .

وسمع الفتى ذلك الكتاب فلم يملك نفسه أن قال :

ـ ولكني لم ألتمس شيئاً .

قال موظف القصر في صوت يجري فيه الخوف :

ـ لا تقل هذا ، فمراسم التشرف بمقابلة مولانا تقتضي دائماً أن تطلب المقابلة .

وسكت الموظف قليلاً ثم قال :

ـ هل عندك سترة الردنجوت ؟

قال الفتى : نعم .

قال الموظف :

ـ ما شاء الله ! كنت أريد أن أعيرك سترتي .

قال الفتى :

ـ لقد اتخذت هذه السترة حين كنت أتهيأ للزواج .

ولم تتم الساعة العاشرة من صباح غد حتى أقبل موظف القصر ذاك رحمه الله فصحب الفتى الى حيث أسلمه لاحد الامناء الذي أخذ يحدثه حتى حان موعد المقابلة ، فصحبه الى مكتب السلطان .

وخفّ السلطان للقائه كأحسن ما يكون اللقاء . ثم أجلسه غير بعيد من المائدة التي كان يجلس اليها وتلطف له في الحديث وشمله بعطف كثير . وسأله : ماذا درس في فرنسا وماذا نال من الدرجات الجامعية . فلما أنبأه الفتى بما درس وما نال من الدرجات أظهر الرضا وأثنى على الفتى ثناء حسناً لانه درس اللغتين القديمتين ، ثم قال مترفقاً :

– تعلم اني كنت رئيس الجامعة حين كنتَ أنت طالباً فيها ...

فأطرق الفتى ولم يجب . قال السلطان :

– انما ذكرتك بذلك لادعوك الى أن تلجأ اليّ كلما ضقت بشيء أو احتجت الى عون .

واضطرب لسان الفتى بالشكر . ولكن السلطان دق الجرس ووقف فوقف الفتى وأقبل الامين فصحبه الى خارج الغرفة . وأسلمه الى موظف القصر ليردّه الى داره .

وكان الفتى مضطرباً قبل أن يلقى السلطان لقصة كانت لـــه معه حين كان رئيساً للجامعة وكان صاحبنا طالباً فيها .

انعقد في مصر مؤتمر للمكفوفين في سنة من تلك السنين واهتم له سكرتير الجامعة أحمد زكي « بك » . فألقى فيه حديثاً وقدم اليه كتاباً عربياً قديماً ينبيء فيما يظهر بأن العرب قد سبقوا الى اختراع الكتابة البارزة .

وفي ذات مساء كان الفتى يسعى الى غرفة الدرس ، واذا رجل يأخذ بمجامع جبته وقفطانه ويقول له في لغة ملتوية :

– تعرف أن في مصر الآن مؤتمراً منعقداً يبحث في شؤون العميان ...

قال الفتى في عنف :

– وما أنا وذاك !

قال الرجل :

– تلقي فيه خطبة .

قال الفتى :

– لن ألقي شيئاً .

فخلاه الرجل ومضى وهو يقول :

– مش فاهم مش فاهم .

ولم يكد الفتى يبلغ غرفة الدرس حتى أحاط به ثلاثة أو أربعة من أعضاء مجلس ادارة الجامعة وجعلوا يسألونه :

– أتعرف من حدثك ؟

قال الفتى :

– لا أعرفه ولا يعنيني أن أعرفه .

قال قائل منهم وهو يضع يده على كتف الفتى :

– انه أفندينا الامير ! انه رئيس الجامعة ، فلا أقل من أن تجيبه في أدب حين يتحدث اليك .

وهز الفتى رأسه ولم يقل شيئاً فتفرقوا عنه وأن أحدهم ليقول :

« دعوه فانه شيخ ! » .

ذكر صاحبنا هذه القصة في طريقه الى القصر فاضطرب لها . فلما ذكره السلطان بأنه كان رئيساً للجامعة وقع في نفسه أن السلطان يريد أن يذكره بتلك القصة . فكاد الاضطراب يغلبه على أمره لولا أن السلطان رده الى الهدوء بما مضى فيه من حديثه ذاك .

ولم يمض وقت طويل حتّى تعقدت الامور بين الجامعة وبين صاحبنا ، فهو قد تبين أن زوجه لا تستطيع أن تمنحه من وقتها كل ما يحتاج اليه للقراءة واعداد الدروس . ولا تستطيع أن تصحبه دائماً الى الجامعة ولا أن تخرج معه كلما أراد الخروج . فليس لها بدّ من أن تعنى بصبيتها ومن أن تقوم على دارها . واذن فهو محتاج الى رفيق يقرأ له أكثر النهار ويغدو معه ويروح كلما أراد غدواً أو رواحاً . ولا سبيل الى أن يقتطع أجر هذا الرفيق من مرتبه ، وكان ثلاثة وثلاثين جنيهاً يقتطع منه في كل شهر ما يؤدّي به بعض دينه لشركة التعاون . فطلب الى الجامعة أن تزيد في مرتبه ما يعينه على أجر ذلك الرفيق . وأبت عليه الجامعة ما طلب كأنها ضاقت بكثرة مطالبه ، فاستقال في لهجة شديدة غضب لها مجلس الادارة أشد الغضب .

وقال سكرتير الجامعة لصاحبنا ذات مساء :

— إن المجلس مزمع أن يقبل استقالتك وأن يطالبك بأن ترد على الجامعة ما أنفقت عليك أثناء اقامتك في فرنسا .

وسمع صاحبنا ذلك فضاق به واكتأب له وراح الى أهله محزوناً

كاسف البال ؛ فلما قص الامر على زوجه هوّنت عليه الصعب ويسرت عليه العسير . وأقنعته بأنه كغيره من الناس يخطيء ويصيب وبأنه أخطأ حين أسرع الى الاستقالة ، والرجوع الى الصواب خير من الاصرار على الخطأ ، وأسرف حين أساء الى الجامعة التي أحسنت اليه والرجوع الى القصد خير من التمادي في الاسراف . فليس عليه بأس أن يسترد استقالته وليس عليه بأس أن يعتذر من لهجته تلك القاسية .

وأصبح صاحبنا فاسترد استقالته راغماً واعتذر الى الجامعة راغماً أيضاً . واقتطع من مرتبه منذ ذلك اليوم أجر ذلك الرفيق الشيخ الذي كان يقرأ له ويغدو معه ويروح .

ولم يعلم الفتى كيف ارتفع أمر هذه الخصومة بينه وبين الجامعة الى السلطان . ولكن موظف القصر يزوره ذات مساء ويقول له في صوت متضاحك :

ـ لقد التمستَ التشرف بمقابلة عظمة السلطان ، وقد حدد لهذه المقابلة منتصف الساعة الثانية عشرة من الغد .

ويدفع اليه كتاباً من كبير الامناء بهذا المعنى ، فاذا انصرف عنه قـال :

ـ سأصحبك غداً الى القصر .

وتلقى السلطان صاحبنا لقاء حسناً وتحدث اليه فأطال الحديث . ثم قـال له فجأة :

ـ لقد بلغني نبأ استقالتك من الجامعة ، وقد أحسنت بالعدول

عن هذه الاستقالة ، ولابدّ من صبر طويل واحتمال كثير من الجهد ، فبين هؤلاء الناس وبين حسن الذوق وقت مازال طويلاً . ولكن أذكر دائماً ما قلته لك حين لقيتك في المرة الاولى .

ثم دق الجرس ووقف فوقف الفتى وأقبل الامين فقاده الى خارج الغرفة .

وشعر صاحبنا بأن عليه منذ اليوم للسلطان ديناً يجب أن يؤدى . ولم تمض شهور حتى كان قد أتم أول كتاب أصدره بعد عودته من أوروبا « صحف مختارة من الشعر التمثيلي اليوناني » . فأهداه الى السلطان ورفعه اليه في مقابلة ثالثة التمسها هو وأجيب اليها . وظن أنه قد أدى الى السلطان حقه وشكر له عطفه عليه وبرّه به ، ولكن السلطان كان يرى شيئاً آخر ، وينتظر شكراً آخر غير اهداء كتاب مهما يكن موضوعه .

الفصل العشرون

إيمانٌ بالثورة !

لم يكن صاحبنا قد أتم العقد الثالث من عمره حين عاد من اوروبا وأصبح استاذاً في الجامعة ، ولكنه كان يعتقد ان تجاربه الكثيرة التي بلا حلوها ومرّها أثناء اقامته في فرنسا قد تجاوزت به هذه السن ، ونيفت به على الاربعين ، فهو قد أنفق في فرنسا أعوام الحرب العالمية كلها ، وهولم يعش تلك الاعوام لاهياً عما كان يجري حوله من الاحداث ، ولا غافلاً عما كان في هذه الاحداث من عبر وعظات . وهو لا يذكر أنه صُرِف عن احداث الحرب وأصدائها في الامة الفرنسية وغيرها من الامم المحاربة يوماً من الايام . كان يقرأ الصحف الفرنسية معنيّاً بقراءتها ، وكان يطيل التفكير فيما يقرأ .

وهو لم يعد إلى مصر الا بعد ان وضعت الحرب أوزارها ، وامتاز المنتصر من المنهزم ، وظهرت آثار الانتصار عند الغالبين ، وآثار الهزيمة عند المغلوبين ، وثلّت عروش كان الناس يقدرون لها الخلود ، وذلّت شعوب كان الناس يقدرون لها سلطاناً لا يزول .

وفي أثناء تلك الحرب كانت ثورة لم يعرف التاريخ لها نظيراً

الا الثورة الامريكية والفرنسية في القرن الثامن عشر . وقد حاولت هذه الثورة ان تحقق نظاماً كان الناس يقرأونه في الكتب ويعتقدون انه من هذه المثل البعيدة التي لا سبيل الى تحقيقها .

كل ذلك عرفه صاحبنا وتتبع أنباءه وآثاره في عناية لم تكن أقل من عنايته بالدرس والتحصيل ، وهو في هذا الدرس وهذا التحصيل قد قرأ وسمع أساتذته يعرضون ويفسرون تاريخ الامم القديمة والحديثة ، وما اختلف عليها من الاحداث التي تطورت لها نظم الحكم على اختلاف العصور . وكان شديد التأثر بدروس الاستاذ دوركيم في علم الاجتماع . وكان الاستاذ دوركيم قد أنفق عاماً كاملاً يدرّس لتلاميذه مذهب الفيلسوف الفرنسي سان سيمون الذي يقوم على أن أمور الحكم الصالح المنتج الذي يحقق العدل ويكفل رقي الشعب ويتيح للانسانية أن تتقدم الى أمام ، يجب أن تصير الى العلماء لأنهم هم الذين يستطيعون أن يلائموا بين نتائج العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور والمضي في سبيل الرقي .

فليس غريباً ان يعود صاحبنا الى وطنه مؤمناً بالثورة التي شبت فيه ، ومؤمناً في الوقت نفسه بأن عبئاً خطيراً من أعباء هذه الثورة سيقع على العلماء والمثقفين من ابناء هذا الوطن . فهم قد عرفوا تجارب الامم وعرفوا حقائق العلم واستطاعوا ان يميزوا بين ما يمكن من الامر وما لا يمكن ، وهم القادرون على ان يقودوا الشعب الى الخير ويسلكوا به قصد السبيل ، ويعصموه من التورط

فيما تورطت فيه شعوب كثيرة فلم تجن منه الا شرا .

وكان صاحبنا يقدر ان الساسة الذين يقودون الثورة سيختلفون في يوم قريب أو بعيد ، ويعتقد أن العلماء والمفكرين سيكونون هم الذين يحققون التوازن بين الساسة حين يختلفون ، وسيقضون بينهم فيما يضطرون اليه من الاختلاف .

كان مؤمناً بهذا ، وكان مستيقناً ان العلماء والمفكرين لن ينحازوا الى الاحزاب ، ولن يكونوا كغيرهم من عامة الناس ، الذين يقادون ولا يقودون . ولم يكن يقدر ان سيشارك في السياسة من قرب او بعد ، ولكنه لم يكن يتردد في أنه لن يحجم عن اداء الواجب وقول كلمة الحق ان اضطر الى ذلك غير حاسب للظروف ولا للعواقب حساباً .

على أنه لم ينفق في مصر شهوراً حتى تبين انه كان واهماً في كل ما قدر . وان العلماء والمفكرين ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التي يعيشون فيها فيخطئون مثلها ويصيبون . بل هم قد يرون الخطر ويعمدون اليه متابعين للجماعات التي يذهبون مذهبها او يرون رأيها . وهنالك تبين ان ذلك الشاعر الجاهلي انما صور حقيقة خالدة من حقائق الجماعات حين قال :

أمرتهمو أمري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
غوايتهم أو أنني غير مهتدي

وهل أنا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غزية ارشد

وكان اول مالاحظ بعد أن أقام وقتاً قصيراً في مصر ، ان الامر كان مختلفاً بين الذين كانوا يرون انفسهم علماء ومفكرين وبين عامة الناس والشباب منهم خاصة .

فأما أولئك فكانوا يؤمنون بالثورة ولكنهم كانوا يؤمنـــون بأنفسهم أيضاً . وهم من أجل ذلك لا ينظرون الى الاحداث ولا يشاركون فيها خالصين لها في غير تردد ، وانما كانوا يقدرون لأرجلهم مواضعها قبل الخطو ولا يتحرجون من نقد الساسة والقادة والتندر بهم حين يقولون وحين يفعلون . وكان هذا الموقف يعرضهم للانقسام على أنفسهم ومشاركة الساسة في الاختلاف حين يتورطون فيـــه .

واما عامة الناس والشباب منهم خاصة فكانوا مؤمنين بالثورة قد أخلصوا لها نفوسهم وقلوبهم وأيديهم أيضاً . لا يفكرون في عاقبة ولا يخافون هولاً مهما يكن . وهم كانوا يعرضون صدورهم لرصاص الانجليز ويغامرون بحياتهم مغامرة رائعة على حين كان بعض الساسة القائمين بالحكم في تلك الايام لا يحفلون بهم ولا بما يلقون وانما يصانعون الانجليز حيناً ويصانعون القصر حيناً آخر ، ويسخرون من أولئك الذين كانوا ينتظرون في باريس ان تفتح لهم أبواب وزارات الخارجية أو يحاولون في لندره أن يصلوا مع الانجليز الى كلمة سواء .

ولم يكد الانجليز يعلنون زهدهم في الحماية وميلهم الى الغائها واقامة نظام خير منها ، ولم تكد وزارة الثقة –كما كانت تسمى في تلك الايام– تنهض بأعباء الحكم ، ولم يكد سعد رحمه الله يعود الى مصر ، حتى نجم الخلاف بين الوزارة وبين الوفد حول المفاوضات : من الذي يجريها ؟!

أتجريها الوزارة لانها تمثل السلطان الشرعي النظامي ؟

أم يجريها الوفد لانه يمثل الشعب الثائر ؟

وكان الغريب من أمر هذا الخلاف انه كان يتصل بالمظاهر والصور لا بالوقائع وحقائق الامر . كان أعضاء الوزارة وأعضاء الوفد يؤمنون جميعاً بحق مصر في الاستقلال ، وبأن هذا الاستقلال يجب ان يستخلص من الانجليز بالمفاوضة الحرة ايثاراً للسلم ورغبة في العافية وبخلاً بالدماء على أن تراق وبالنفوس على أن تزهق قبل أن تستنفد وسائل السلم . ولكنهم على هذا الاتفاق والاجماع كانوا يختلفون في مظاهر هذه المفاوضة ، لان من يجريها سيتاح له تحقيق الاستقلال أن قدر له النجاح .

وكذلك انقسم المصريون وثارت بينهم فتنة منكرة جعلت بأسهم بينهم شديداً .

ونظر صاحبنا فاذا العلماء والمفكرون كغيرهم من الناس قد انقسموا الى فريقين : فريق منهم مال الى الوفد وقال مع القائلين : «لا رئيس الا سعد» ، وفريق آخر مال الى الوزارة وقال مع القائلين : «انما المفاوضات لمن ولي الحكم» . ثم نظر صاحبنا

فاذا هو كغيره من عامة الناس ، واذا هو مع الفريق الذي مال الى الوزارة ورئيسها عدلي باشا رحمه الله .

وما أسرع ما اضطرمت الفتنة حتّى مس لهبها كل نفس وكل عقل وكل ضمير . واذا الوفد يتمنى الاخفاق للوزارة في مفاوضاتها ويدبر لهذا الاخفاق ، واذا أتباع الوفد يجهرون في غير تحفظ بدعائهم ذاك البغيض : « الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلي » .

واذا صاحبنا ينفق اقصى ما كان يملك من العنف في مهاجمة هؤلاء الوفديين الذين أتخذوا من بغضهم لعدلي وأصحابه ، ومن حرصهم على رياسة المفاوضات ديناً ، واذا هو يكتب ذات يوم في صحيفة « المقطم » ساخراً من السعديين « يقول الوفديون لا رئيس الا سعد كما يقول المسلمون لا اله الا الله . »

وقد بلغ الشر أقصاه بين الفريقين حتّى انتهى الى اخفاق المفاوضات ولم ينزل الانجليز لعدلي عن الاستقلال وكثرة المصريين لا تؤيده بل لا تحبه بل تبغضه وتبغض أصحابه أشد البغض وأنكره .

ويعود عدلي مخفقاً فيفرح باخفاقه الوفد وأتباعه ، ويزعم أصحاب عدلي أن صاحبهم قد كان أبياً كريماً قد ثبت للانجليز فلم ينزل لهم عن حق الوطن ولم يقبل منهم الدنية وعاد أشم مرفوع الرأس .

ويرى صاحبنا نفسه ذات يوم في محطة القاهرة مع المستقبلين

لعدلي وهو يصيح مع الصائحين : « ليحيي عدلي باشا » .

وقد حمل العدليون صاحبهم على الاكتاف حتى وضعوه في سيارته . ولا يكاد المستقبلون للمخفق العظيم يخرجون من المحطة حتى تنهال عليهم اللعنات ويصب عليهم الاستهزاء صبّاً ، ثم يقذفون بالحجارة والعصي ، ويصاب صاحبنا ببعض الاذى ولولا أن رفيقه كان ماهراً لبقاً لتعرّض لشرّ كثير . ولكن رفيقه انعطف به الى حارة من الحارات ثم نفذ به الى حيث أمن الحصى والحجارة والشتم . وأعاده الى داره موفوراً مكدوداً مع ذلك .

ويُنفى سعد بعد إخفاق عدلي بقليل ، وينكر عدلي هذا الاخفاق ، ويلح في قبول استقالته ، ويرى أصحاب عدلي أن نفي سعد اهانة للوطن كله ، وتوشك الكلمة أن تجتمع ويوشك المصريون أن يصبحوا يداً واحدة على خصمهم من الانجليز . ولكن العصا لا تلبث أن تنشقّ والخلاف لا يلبث أن يعود كأعنف ما كان ، لم يغير أحد الفريقين من رأيه ولا من خطته شيئاً .

يقول العدليون إن حب الوفد للرياسة قد أضاع المفاوضات !

ويقول السعديون إن ازدراء عدلي للشعب وممثليه قد أضاع الاستقلال ، ويوشك الاستقلال أن ينسى وتنصرف عنه النفوس بفضل هذه الفتنة المظلمة التي كان المصري فيها يخرج يده فلا يكاد يراها .

على أن تصريح الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة اثنين

وعشرين وتسعمائة وألف يرد الى العدليين شيئاً من ثقة وكثيراً من أمل. فقد ظفر ثروت باشا رحمه الله ببعض الحق. وشيء خير من لا شيء.

وقد أتيح لمصر أن تدبر أمورها بنفسها وأتيح للشعب أن يكون له دستور وأن يحيا حياة ديمقراطية كريمة.. وأصبح السلطـــان ملكاً، وأصبح لمصر أن ترسل ممثليها السياسيين الى البلاد الاجنبية بعد أن عادت اليها وزارة الخارجية التي ألغاها الانجليز حين أعلنوا الحماية.

وكل هذا يتيح لمصر مظاهر الاستقلال وشيئاً من حقائقه مهما يكن قليلاً فان له ما بعده. ولكن السعديين كانوا ينكرون هذا التصريح ويرونه شراً ونكراً ويرون قبوله جريمة واثماً.

والخلاف يمضي في طريقه لا تهدأ ثورته ولا تزداد ناره الا اضطراماً، وصاحبنا ماض مع أصحابه في اذكاء هذه النار لا يعنيه أن يرضى عنه الراضون أو يسخط عليه الساخطون، وانما هو مقتنع بأن شيئاً خير من لا شيء وبأن القليل صائر الى الكثير. وبأن هذه المظاهر ستصبح في يوم من الايام حقائق ان عرف المصريون كيف يحزمون أمورهم وكيف يجمعون كلمتهم وكيف يحسنون انتهاز الفرص.

وقد أخذ ثروت باشا رحمه الله يهيىء لوضع الدستور فألف لجنة الثلاثين، وأخذت هذه اللجنة في عملها. ولكن شراً آخر يظهر في أفق مصر...

فهذه اللجنة قد أخذت عملها على أنه جد.. وجعلت تضع دستوراً ديمقراطياً يخول الشعب من الحقوق ما لا يريد القصر أن ينزل عنه. واذا سلطان الأمس وملك اليوم يمكر بالوزارة واللجنة جميعاً. واذا الخلاف يظهر بين القصر وبين ثروت باشا وتكون ديمقراطية الدستور هي أصل هذا الخلاف. وصاحبنا ماض في تأييد الدستور الديمقراطي غير ملق بالاً الى القصر ولا الى صاحب القصر الذي أحسن لقاءه ومنحه كثيراً من العطف والبر والتشجيع.

وفي ذات يوم ينبيء ثروت باشا صاحبنا بأن القصر ساخط عليه، وبأنه يحاول أن يصلح الأمر.

قال صاحبنا متضاحكاً:

ــ فأصلح الأمر بين الوزارة وبين القصر ان وجدت الى ذلك سبيلا. فهذا أجدر بعنايتك من اصلاح الأمر بين القصر وبيني!

ولم يستطع ثروت باشا أن يصلح الأمر بين القصر والوزارة ولا بين القصر وصاحبنا، وانما استقال.

ونظر صاحبنا فاذا هو بين عدوّين لا يدري أيهما أنكى له من صاحبه.

يراه السعديون مارقاً قد مالأ المارقين.

ويراه القصر كافراً بالنعمة جاحداً للجميل.

ويرى هو أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن بعد ذلك ما يكون.

وكذلك غرق صاحبنا في السياسة الى أذنيه ، وكان جديراً أن يفرغ للعلم والتعليم وألا يفكر الا في طلابه وكتبه ، ولكن بعض الظروف تحيط بالشعوب فتجعل الحيدة بالقياس الى بعض أبنائها اثماً لا يغتفر ، ولا تمحى آثاره .

وكان صاحبنا يرى الحيدة في ذلك الوقت جبناً ونفاقاً . والمهم أنه غرق في السياسة أو احترق بنارها ، ولم يكن له بد من أن يحتمل تبعات هذا الغرق أو هذا الحريق . وهل كانت حياته كلها منذ تلك الايام الا نتيجة طبيعية لاقدامه على السياسة وغرقه فيها واصطلائه نارها ؟

كل ما لقيه بعد ذلك في حياته من خير أو شر ، ومن عرف أو نكر ، ومن رضا أو سخط لم يكن الا أثراً من آثار تلك السياسة التي أقدم عليها غير حاسب لأعقابها ونتائجها حساباً . وعلى كثرة ما لقي من أهوال السياسة وما احتمل من أثقالها وما تعرض لسخط المتطرفين حيناً والمعتدلين حيناً آخر ، لم ينكر من سيرته شيئاً ولم يندم على فعل فعله أو قول قاله .

وكثيراً ما كان الناس من صديقه يلومونه على أنه عرّض نفسه لسخط هذه الفئة أو تلك . فلم يكن يزيد على أن يهز رأسه ويرفع كتفيه ويجيب هؤلاء الصديق بما كان يديره بينه وبين نفسه دائماً : لو استؤنف الأمر من حيث ابتدأ لاستأنف سيرته التي سارها لم يغير منها شيئاً ولم ينكر منها قليلاً أو كثيراً . ذلك لانه لم يستجب فيما قال أو فعل الا لما كان يدعوه اليه ضميره من الاقدام في غير

تهيب ولا وجل ، ولا سيما حين يبلغ الشر أقصاه وتنتهي الفتنة إلى غايتها ..

ولقد رأى نفسه ذات يوم وليس بينه وبين المحنة الا خطوة الى امام ، وليس بينه وبين العافية الا خطوة الى وراء ، وان أصدقاءه المحبين له العاطفين عليه الذين لم يكونوا يملكون له في تلك الايام الا المشورة والنصح ، ليلحّون عليه في ان يؤثر العافية ، ولو وقتاً قصيراً ، فلا يسمع لمشورتهم ولا يحفل بالحاحهم وانما يخطو خطوته تلك الى أمام . فيلقي بنفسه بين ذراعي وجبة الاسد كما يقول الشاعر القديم . وما أمضّ ما وجد ووجد أهله معه من ألم ، وما أمرّ ما ذاق وذاق أهله معه من شقاء !.. ولكنه كان يستحب تلك الشدة الشديدة والقسوة القاسية على العافية واللين .

كان يعرف نفسه حين يشقى في سبيل ما يرى أنه الحق ، وينكرها أشد الانكار بل يبغضها أشد البغض اذا نعم بالخفض واللين لانه صانع أو داجي أو جهر بغير ما يسر أو آثر رضى السلطان على رضى الضمير . وكان شعاره دائماً الشعار الذي كان يبادي به من يخاصمه كما كان يبادي به من يغريه قول أبي نواس :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب
ولا كل سلطان عليّ أمير !

فهرس

الطبعة الاولى
شباط (فبراير) ١٩٦٧

مطبعة دار الكتب
بيروت — ص . ب ٣٥٥٩

هذا الكتاب

لا شكّ في ان « **مذكرات طه حسين** » ستكون حدثاً ادبياً هامّاً في تاريخ الادب العربي الحديث !

إن الأديب العربي الاول يعود بهذه المذكرات الى قرائه الكثيرين في الوطن العربي فيروي مرحلة هامّة من حياته مليئة بالاحداث ، منذ دخوله الازهر وسفره الى فرنسا حتى خوضه معترك الحياة السياسية في مصر .

وفي هذه المذكرات فصول ممتعة عن لقائه بالاديبة اللبنانية مي زيادة ، وغرامه بفتاة فرنسية . ولعلّ الفصول التي يتحدث فيها عن هذا الغرام من أروع ما خطه قلمه لما يتميز به من رهافة الإحساس وعمق التعبير عن عواطفه . وسيتابع القاريء بشغف كبير قصة طه حسين مع تلك « المرأة التي أبصر بعينيها » ، كما سيتابع الاحداث التي عاشها هذا الفتى بين الازهر في القاهرة والحي اللاتيني في باريس... كل ذلك باسلوبه الطليّ الساحر ...

رائعة اخرى من روائع الدكتور طه حسين ...

الثمن : ٤٠٠ ق. ل – ٥٢٥ ق. س – ٧٥٠ مليماً